

36

روايات عالمية للجيب



Looloo

www.dvd4arab.com

قصة : جون جريشام
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

ما وراء العالم

المؤلف

(هـ.ب. لافكرافت) !

لماذا يملك كل كتاب
الرعب تقريبًا هذه
الأسماء المفزعة ذات
الرنين الكابوسي؟ وإلى
أن نكتشف يومًا ما سر
هذه الظاهرة، نتحدث



هنا في عجالة عن (لافكرافت) أهم كتاب الرعب
للقرن العشرين ..

(هـ.ب. لافكرافت) مدرسة متفردة من
مدارس أدب الرعب ثقيل الوطاء ، وهي مدرسة
قد لا نجد لها شبيهًا إلا عند أمريكي آخر هو

روايات عالمية لا يجب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب
العالمى ، فى مختلف صنوفه ..
من الألباز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..
ومن الشرق إلى الغرب ..
وإلى الحضارة ..
وإليك ..

د. نبيل فاروق

والملاحظ أنه يشير إليها في أكثر من قصة حتى إن كثيرين صاروا يعتقدون أنها حقيقية .. وفي بعض خطاباته الخاصة يصف لصديق الطريقة المثلى لنطق لفظة Cthulu التي حير نطقها الكثيرين ، فيقول إن عليك أن تنطقها من حلقك مع تثبيت طرف اللسان على سقف الفم ، والنباح لتخرج الكلمة (كت - هلو - لهو) !! لأن لسان البشر القاصر لا يستطيع نطق الاسم بالشكل الصحيح ! بل ما زال كثيرون يبحثون عن النسخة الأصلية من كتاب (نكرومونيكون) السحري ، الذي كتبه شاعر يمني اسمه (عبد الله الحظرد) حسب زعم (لافكرافت) ..

ولد (هوارد فيليب لافكرافت) في أغسطس عام 1890 في (بروفيننس) بـ (رود آيلاند) وتربى مع أمه وجدده بعد وفاة أبيه الغامضة (ظل سنتين يقال له أن أباه نائم الآن) وكان مولعاً بالقراءة

(إدجار آلان بو) كإلا الأديبين ينتمي أساساً إلى مدرسة كبرى من مدارس الأدب الرومانسي ، هي الرعب القوطي .. أي الرعب الشبيه بعوالم الكوابيس بالضبط . رعب الغموض والقلاع المظلمة والبروق والرعود ، والشورور المستطيرة والنفوس المعقدة المجنونة .. ومن أدياء هذه المدرسة (ماري شيللي) (وماتيورين) و (برام ستوكر) و (بكفورد) و (م . لويس) و (آن رادكليف) . لكن (لافكرافت) أستطاع أن يضيف على الرعب شاعرية أدبية معقدة ، مع خلفية من الهواجس النفسية المظلمة ذات مذاق خاص ، حيث الخطر ينبع من الداخل كما يفيض من الخارج . وصارت له مفردات عالمه الخاصة التي يعرفها قراؤه كأسمائهم مثل (نكرومونيكون) - (كتولو) - (آرخام) - (أزوث) - (العزيف Azif) - الخ ...

البيت الجميل الذى تربى فيه الأديب ، وأصابه انهيار
عصبى حرمه من دخول الجامعة ، وقد ظلت هذه
النقطة تعذبه طيلة حياته .

فيما بعد التحق برابطة الأدباء الهواة المتحدين
عام 1914 وترقى الى أن صار رئيس الرابطة ،
وكانت هذه أهم خطوة فى حياته ، لأنه لم يكن واثقاً
قط مما إذا كان يملك حاسة الأدب أو يفتقر إليها ،
وكتب أول قصصه الخيالية المرعبة (الوحش فى
الكهف) - تقرؤها هنا - و (الخيميائى) ولاقى
نجاحاً أقتعه بأن يكرس قلمه لهذا النوع من الألب ..
وفى الأدب كتب الكثير جداً من الشعر ، مثله مثل
(آلان بو) مواطنه الأشهر .

وفى الوقت ذاته كان يرسل عدداً هائلاً من
الأصدقاء والمعارف ، حتى صار بالفعل من أهم من
كتبوا أدب الرسائل فى هذا القرن . وفى العام 1921

وبصفة خاصة (ألف ليلة و ليلة) التى قرأها
وعمره خمسة أعوام ، ولسوف يدرك دارسو أدبه
يوماً ما أن (ألف ليلة) قد تركت بصمة لا تمحى
فى كتابات الرجل ، وفى هذه الفترة أطلق على
نفسه اسم (عبد الله الحظرد) وهو نفس الاسم
الذى كتب به روايته الرهيبة (نكرومونيكون) كما
قلنا . وفى العام التالى اكتشف الأساطير الإغريقية
وقرأ الإلياذة والأوديسا .. ولعب جده دوراً مهماً
فى جعله يحب حكايات الرعب القوطية .

كان قليل الانتظام فى المدرسة ، بلا أصدقاء
تقريباً ، لكنه كان يدرس فى مدرسته الخاصة
الزاحرة بقراءات لا تنتهى . وفى سن المراهقة أصدر
بنفسه مجلة دورية عن علم الفلك ، وراسل إحدى
الصحف المحلية . ثم توفى جده وعانت أمه الكثير
من المشاكل المادية ، مما اضطرهما إلى ترك

قابل (سارة) .. المرأة التي ستكون زوجته ، وهي مهاجرة سوفيتية تكبره في العمر بسبعة أعوام . وتزوجا في العام التالي ، وعاش معها في شقتها في (بروكلين) وكتب (لافكرافت) أسوأ كوابيسه القصصية مثل (الرعب في ردهوك) و(هو) متأثر بجو (نيويورك) الكئيب الذي لم يحبه قط ، وفي عام 1929 تم الطلاق وعاد هو إلى (بروفيننس) التي أحبها بعمق . كانت هذه آخر وأهم عشرة أعوام من عمره ، وفيها سافر كثيراً جداً وكتب أهم رواياته (نداء كتولو) و(في جبال الجنون) و(ظل الزمن) كما كان يقرأ كثيراً جداً وفي كل موضوع من الفلك إلى التاريخ إلى النحت إلى السياسة .

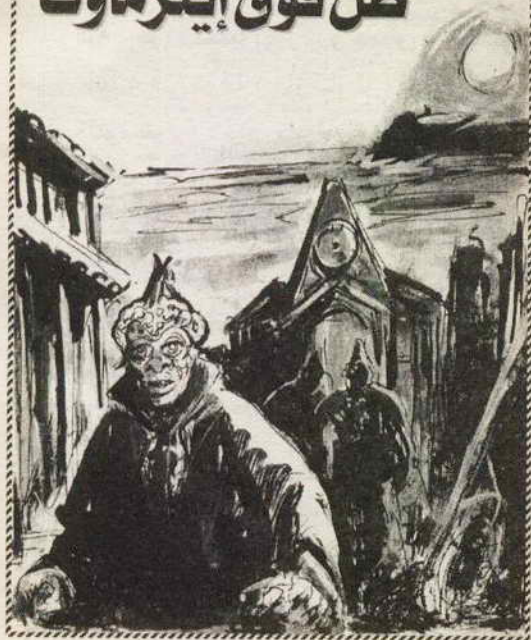
ومع العام 1932 صارت قصصه أكثر تعقيداً وصعوبة ، وصار يجد عسراً في بيعها ، لذا راح يكسب عيشه كمصحح لقصص الأشباح الرخيصة .

وفي العام 1937 اكتشف الأطباء أنه مصاب بحالة متقدمة من سرطان الأمعاء ، وسرعان ما توفي في العام نفسه .

كان (لافكرافت) يتنبأ بنسيان أعماله بعد موته ، لأنه لم ينشر قط كتاباً بالمعنى الصحيح .. وربما تعتبر رواية (ظل فوق إينزماوث - 1936) هي العمل الوحيد له الذي نشر في كتاب - وهي بين يديك الآن - وفيما عدا ذلك كانت أعماله العديدة مبعثرة في المجلات والدوريات . وبعد وفاته تطوع تلميذاه اللذان شجعهما كثيراً (أوجست درليث) و(دونالد وانديري) بجمع أعماله وكونا دار نشر اسمها (بيت آرخام) ، وصارت كل إبداعاته متاحة للقراء وطلاب الأدب في كتب حسنة الطباعة والتغليف .

في هذا الكتيب والكتيب الذي يليه ، نقرأ بعض القصص القصيرة أو الروايات القصيرة لهذا الأديب

ظل فوق اينزماوث



العظيم ، وقد حاولت تخفيف بعض الفقرات ، لكنى
لا أنصح صغار السن بتأناً بقراءة هذين الكتبيين ،
وهذه ليست دعاية لهما بالمناسبة ، بل هى الحقيقة !

د . أحمد خالد توفيق

فى شتاء عام 1927 - 1928 قام موظفو الحكومة الفيدرالية بإجراء تحقيق سرى وغامض ، بصدد أمور معينة فى مرفأ (اينزماوث) العتيق فى (ماساتشوستس) . ولم يعرف الجمهور بالأمر إلا فى فبراير مع سلسلة واسعة من الاعتقالات ، تلتها عمليات حرق وتفجير بالديناميت - بعد إنذار الأهلى طبعاً - لعدد كبير من المنازل العتيقة المتآكلة عبر الساحل المهجور . واعتبر غير الفضوليين هذه الصدمات جزءاً من الحرب الحكومية المستمرة ضد الخمر .

إلا أن متابعى الأخبار المخلصين تساءلوا عن سر هذا العدد المذهل من الاعتقالات ، والقوات الكبيرة المكلفة بهذا ، والسرية التى تحيط مصير المعتقلين . لم تكن هناك محاكمات ولا حتى

اتهامات محددة .. بل إن أيًا من المعتقلين لم يشاهد بعد هذا فى أى من سجون الدولة المعروفة .. وكانت هناك إشاعات عن مصكرات احتجاز ، وعن توزيع المعتقلين على السجون الحربية وسجون الأسطول ، لكن لم يتضح شىء .. وكانت (اينزماوث) نفسها تخلص من السكان تقريباً فلم يبدأ ركب الحياة فيها إلا مؤخرًا ..

تعالى شكاوى بعض منظمات الحريات وحقوق الإنسان ، لكن الحكومة قابلت ممثلها بمناقشات هادئة واثقة ، ونتيجة لهذا صار دور هذه المنظمات سلبياً .. وصار مندوبو الصحف أكثر تحفظاً - وإن بدا أنهم فى النهاية فى صف الحكومة - فقط صحيفة واحدة من صحف الفضائح (تابلويد) تحدثت عن توريبات انطلقت من غواصة نحو (شرع الشيطان) القريب من (اينزماوث) ..

كان الناس يتهايمسون ويغمغمون ، لكن أشياء كثيرة كانت قد علمتهم أن يحتفظوا بأسرارهم ، وما كان يجدى أن تضغط عليهم .. بالإضافة لهذا كانوا يعلمون أقل القليل .. لأن المستنقعات المالحة الشاسعة غير المأهولة ، أبقتهم داخل الساحل بعيداً عن (إينزماوث) ..

لكننى فى النهاية قد قررت أن أخرق الحظر على الكلام فى هذا الموضوع ، وأحسب أن هذا لن يحدث أذى عاماً اللهم بعض النفور والتقرز الناجمين عن توضيح ما وجدته أولئك القوم المذعورون فى (إينزماوث) .. بالإضافة لهذا فإن ما وجدته القوم يحتمل أكثر من تفسير .. لا أعرف بالضبط ما قد حكى من القصة كلها ، لكننى كنت أقرب من أى رجل عادى آخر إلى هذا الموضوع ، وقد اكتسبت انطباعات عنه قد تقودنى إلى سبل مأساوية ..

كنت أنا من فر من (إينزماوث) ملهوقاً فى ذلك الصباح الباكر يوم 16 يوليو عام 1927 ومن انهالت أسئلته ومناشداته للحكومة كى تتدخل .. وكنت أوتر الصمت مادام الأمر طازجاً غير مؤكد بعد .. لكن الآن قد صارت القصة قديمة ، وولى اهتمام الناس بها ، ولدى رغبة غامضة فى أن أهمس بحكاية الساعات الرهيبة التى قضيتها ، فى ذلك المرفأ سبى السمعة الذى يعج بالموت والشاذ من الأمور .. ومجرد السرد يعيد لى الثقة فى قدراتى ، ويطمئننى أننى لم أكن أول من سقط فريسة هلاوس الكابوس ، كما أنه يساعدى على حزم أمرى فى القرار الذى أنوى اتخاذه ..

لم أكن قد سمعت عن (إينزماوث) قبل اليوم الذى رأيتها فيه - وحتى هذه اللحظة - لآخر مرة .. كنت أقوم بجولة فى (نيو إنجلند) أتملى جمال الطبيعة وأجمع التحف الأثرية ، وأدرس المعمار والأنساب ،

وكنت قد أزعمت أن أتجه من (نيوباربيورت) العتيقة إلى (آرخام) حيث نشأت أسرة والدتي . كنت أسافر بالقطار باحثاً عن أرخص الطرق دوماً . وقد قيل لى إن القطار البخارى هو أسرع طريقة للوصول إلى (آرخام) ، وصدمنى سعر التذكرة المرتفع . تعاطف موظف المحطة ذو الوجه المتنمر مع رغبتى فى الاقتصاد ، وعرض على عرضاً خاصاً :

- « يمكنك أن تستقل هذه الحافلة التى لا يجيها الناس هنا .. إنها تعبر (إينزماوث) التى لعك سمعت عنها .. لهذا لا يحبونها هنا .. إن صاحبها من (إينزماوث) ويدعى (جو سارجنت) لكنه لا يتقاضى أجراً .. ولا أرى الكثيرين يركبونها على كل حال سوى سكان (إينزماوث) .. إنها تغادر من الميدان أمام صيدلية (هاموند) فى العاشرة صباحاً والسابعة مساءً .. »

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن (إينزماوث) التى تغمرها الظلال . إن الإشارة إلى مدينة ليست على الخرائط أو أدلة المسافرين ، لأمر جدير بأن يستهوينى ، وشعرت بفضول غريب . إن المدينة التى تبعث هذا النفور لدى جيرانها لهى مدينة جديدة بزيارتها . سألته المزيد من المعلومات عن (إينزماوث) فقال فى لهجة من يعرف الكثير :

- « (إينزماوث) ؟ حسن .. إنها مدينة عجيبة عند ثغر (ماتوكسيت) .. كانت مدينة ومرقاً قبل حرب 1812 لكنها تلاشت فى المائة عام الأخيرة .. إن بها مساكن خاوية أكثر مما بها من سكان .. لا نشاطات سكانية ما عدا صيد السمك وأبى جلمبو .. لديهم بقايا مصفاة ذهب قديمة .. كانت شيئاً ضخماً يوماً ما ، ولا بد أن صاحبها العجوز (مارش) أكثر ثراء من (قارون) .. لكن يبدو

أنه أصيب بمرض جلدى يجعله يتوارى عن
العيون .

« لماذا يكره الجميع (إينزماوث) ؟ حسن أيها
الشاب .. لا يجب أن تصغى كثيراً لما يقول الناس
هنا .. من الصعب جعلهم يتكلمون ، لكنهم متى
بدعوا الكلام لا يكفون أبداً .. إنهم يتهامسون
بأشياء عن (إينزماوث) منذ مائة عام .. بعض
الأشياء تجعلك تضحك مثل كلامهم عن كابتن
(مارش) الأب العجوز وصفقاته مع الشيطان كى
يخرج له العفاريت من الجحيم ليعيشوا فى
(إينزماوث) .. عن طقوس دينية غامضة كانت
تدور قرب المرافئ التى وجدها القوم عام 1845 ..
لكن هذه القصص لا تخيل على ..

« يجب برغم هذا أن تسمع ما يقول بعض
الشيوخ عن التنوء الأسود قرب الشاطئ .. يسمونه

(شرع الشيطان) ، وهو يظل فوق مستوى
الماء أكثر الوقت ، لكنك لا تستطيع أن تعتبره أكثر
من جزيرة .. والأسطورة تقول إن هناك حشداً
من الشياطين يعيشون ويتحركون فى الكهوف
الموجودة قرب قمته ، وقد اعتاد البحارة القيام
بجولات طويلة كى لايمروا قربه . ويزعم البعض
أن كابتن (مارش) كان يتسلى هذا التنوء فى
بعض الليالى حين يكون المد مناسباً .. لربما فعل
هذا .. إن التكوين الصخرى مثير للاهتمام حقاً ،
لكن الأساطير تقول إنه كان يجرى صفقاته مع
الشياطين هناك .. والحقيقة هى أن الكابتن هو
من أعطى تلك السمعة السيئة للتنوء ..

« كان هذا قبل وباء عام 1846 الذى أودى
بنصف سكان (إينزماوث) .. لم يتصوروا
ما يحدث ، وفى الغالب كان هذا وباءً غريباً جلبته

السفن من الصين أو سواها . لا بد أنه لم يعد من السكان أكثر من مائتين أو ثلاثمائة الآن ..

« أضف لهذا أن المكان منعزل عن باقى البلاد تحاصره الغدران والمستنقعات ، وليس بوسعنا معرفة ما يدور هناك حقاً .. لا بد أن الكابتن (مارش) العجوز قد جلب معه بعض العينات البشرية الغربية من الخارج ، حين كانت سفنه الثلاث تجوب البحار فى العشرينات ..

« ثمة اختلاف عرقى معين فى سكان (إينزماوث) ولا أدرى كيف أشرحه ، لكنه سيجعل جلدك يقشع .. لسوف تلاحظه فى (سارجنت) لو ركبت حافلته .. إن لبعض هؤلاء القوم رعوساً صغيرة غريبة وأنوفاً مسطحة وأعين جاحظة لا يبدو أنها ترمش أبداً .. جلودهم أيضاً ليست على ما يرام .. إنها خشنة ملأى بالبثور ، وأعناقهم مجعدة .. لاحظ أيضاً أيها الشاب أن

الشيوخ أكثرهم غرابة فى المظهر .. إن الحيوانات تمقتهم ، وكانت لديهم مشاكل عديدة مع الخيول قبل اختراع السيارات .. إن خليجهم ملئ بالأسمك فى كل الأوقات ، لكن حاول أن تصطاد بعض السمك عندهم ، ولسوف يطردونك على الفور ..

« نعم .. هناك فندق فى (إينزماوث) يدعى (منزل جيلمان) لكنى لا اعتقد أنه جيد .. أقترح أن تركب فى العاشرة صباح غد ، فتلحق بالحافلة المتجهة إلى (آرخام) فى الثامنة مساءً ، فلا تضطر إلى المبيت فى (إينزماوث) ..

« كان هناك رجل يدعى (كازى) قد أمضى ليلة فى الفندق ، وقد أثار فزعه صوت ظل يتردد طيلة الليل ، وقد شعر أن القوم فى (إينزماوث) يراقبونه كحراس ، ووجد أن مصفاة الذهب مكان عجيب ..

وما رآه يتفق مع ما سمعته .. ثمة دفاتر فى
حالة سيئة بلا حسابات واضحة ..

« من الألفاظ الدائمة هنا ذلك المكان الذى
يحصل آل (مارش) منه على الذهب الذى
يصفونه .. كانت هناك إشاعات عن نوع أجنبى غامض
من المجوهرات كان البحارة وعمال المصفاة
يبيعونه ، و أحياناً كانت نساء أسرة (مارش)
يتحلين به .. يقال إن الكابتن (أوبد) قد قايضه
فى مرفأ ما مع الأهالى الوثنيين ، خاصة أنه كان
يطلب الكثير من الخرز الزجاجى وسواه من الأشياء
التي يجرى بها البحارة مقايضة الوطنيين . ثمة
قصة أخرى تقول إنه وجد كنز قراصنة فى
(شراع الشيطان) لكن الجزء الغريب من القصة
هو أن الكابتن مات منذ ستين عاماً ولم تدخل
سفينة واحدة المرفأ منذ الحرب الأهلية ، لكن
آل (مارش) مازالوا مهتمين بالحصول على الخرز

الزجاجى والحلى الرخيصة . من يدرى ؟ لعل
هؤلاء القوم يحبون ارتداء هذه الأشياء .. يعلم
الله أنهم يشبهون فى ملامحهم أكلة لحوم البشر
فى البحار الجنوبية ..

« وكما قلت لك ، فإنه بعد الوباء ربما لايزيد
عدد هؤلاء عن 400 نسمة فى البلدة كلها ، وهم
كما قلت لك يعيشون على بيع الأسماك وأبى
جلمبو ، ومن الغريب أن ترى كيف أن السمك
يظهر بكثرة عندهم وليس فى مكان آخر ..

« من العسير تماماً إجراء حصر سكاتى لهؤلاء
القوم ، ولعلك خمنت أنهم لايرحبون بالغرباء
على الإطلاق هناك . وقد سمعت بنفسى عن
موظف حكومى اختفى هناك ، كما أن هناك أقاويل
عن آخر جن وهو فى (دانفرز) الآن .. لا بد
أنهم أثاروا ذعره بشكل لا يوصف .. ولهذا

لو كنت مكاتك ، لن أذهب هناك ليلاً . لم أذهب هناك
قط ولا أرغب فى هذا ، لكنى أحسب الرحلات
النهارية لن تؤذيك ، برغم أن القوم هنا لن
ينصحوك بهذا .. »

★ ★ ★

ومن ثم قضيت جزءاً من الأمسية فى مكتبة
(نيوباربيورت) العامة أبحث عن معلومات عن
(إينزماوث) وحاوت أن أسأل الناس فى المطاعم
والمناجر ، لكنهم كانوا يجفلون ويحجمون عن
الكلام - كما توقع موظف السكة الحديد . وأدركت
أننى سأضيع وقتاً ثميناً للتغلب على نفورهم ،
وشكهم الغامض فى أى شخص يبدى اهتماماً ما
بـ (إينزماوث) . وبالنسبة للمتعلمين منهم كانت
(إينزماوث) حالة مبالغاً فيها من الاحتياط المدنى .

لم تكن كتب التاريخ تحوى الكثير مما يقال ،

ما عدا أن المدينة أسست عام 1643 واشتهرت
ببناء السفن قبل الثورة ، ولم يذكر إلا القليل عن
وباء عام 1846 كأن فى هذا إهانة للمنطقة . بعد
الحرب الأهلية انكمش النشاط الصناعى إلى تصفية
الذهب لدى شركة (مارش) ، وصارت تجارة
المشغولات الذهبية هى النشاط التجارى الوحيد
بجانب صيد السمك الأبدى .

لم يحاول الأجانب الاستقرار هناك ، اللهم
إلا مجموعة من البولنديين والبرتغاليين ، وقد
تفرقوا بطريقة مأساوية . أما أكثر النقاط أهمية
فهى تلك المجوهرات الغامضة التى ارتبطت
بـ (إينزماوث) وكان وصفها يوحى بشيء ما من
الغرابية حتى إننى لم أستطع إبعادها عن ذهنى ..
وقد ذكر أنها معروضة فى متحف (نيوباربيورت) .
وبرغم أن الوقت كان متأخراً ، فإننى قررت أن
أرى العينة المعروضة هناك والتي كتب أنها شيء

مجهول لا يقل جمالاً عن الذهب .. وكان بوسع
المرء أن يتأمل هذا الجمال ساعات لاتنتهى ..

كنت مفتونا وقتل لنفسي إن هذا بسبب غرابة
هذا الطراز من الفن .. كل فن رأيتَه كان ينتمى
إلى تيار عرقى أو قومى ما ، إلا أن هذه العمامة
لم تكن تنتمى لأية مدرسة فنية أعرفها .. إنها
تنتمى لتقنية بارعة بلغت الكمال ، لكنها تقنية
لا تمت لشرق أو غرب ، ولا ماض ولا حاضر ..
كأن الحرفى الذى صنعها كان من كوكب آخر ..

وعرفت من مس (أنا تيلتون) أن أحد رجال
(اينزماوث) قد رهنها مقابل مبلغ تافه من المال ،
ثم قتل فى مشاجرة ، وهكذا اشترت الحكومة هذه
التحفة من صاحب محل الرهونات فوراً ، ويقال
إن لها أصلاً هندياً أو هند . صينيّاً لكننى أجد أن هذا
غير دقيق .. وقالت لى مس (أنا تيلتون) إن

ضخم غريب النسب ، يبدو أنه صمم ليزين عمامة ،
ولقد أرسل معى أمين المكتبة ورقة توصية إلى
أمينة المتحف ، مس (أنا تيلتون) التى تعيش
قرب المكتبة ، وقد قبلت العجوز اللطيفة أن
تقودنى إلى المتحف المغلق فى هذه الساعة .

كانت عيناى مفتوحتين على الشيء الغريب الذى
يلتمع فى الخزانة .. لم يكن الأمر يحتاج إلى
حساسية جمالية زائدة كى أشهق وأنا أرى هذا
السحر الغنى الغريب ، فوق وسادة من المخمل
الأرجوانى . وحتى الآن أجد من العسير أن أصف
مارأيت ..

كان طويلاً من الأمام ، له أطراف عديمة
الانتظام غريبة كأنما هى عمامة مصممة لرأس
مشوه . وبدا أن الخامة من الذهب ، لكن تألقاً
غريباً كان يشير إلى سبيكة أخرى من معدن

محاولات آل (مارش) لم تنقطع قط من أجل شراء هذه القطعة ، برغم رفض إدارة المتحف البات لذلك ..

قالت لى السيدة الطيبة وهى تقتادنى إلى خارج المتحف إنها لم تر (إينزماوث) قط ، لكنها تشمئز من ذلك المجتمع الذى ينحدر عن مستويات التحضر ، وقالت إن موضوع تلك الطقوس الدينية الغامضة هناك صحيح ، وإنه قد أدى إلى تلاشى أكثر الكنائس التقليدية هناك . قالت لى إن تلك الممارسات كانت تتم تحت مسمى (طريقة ديجون السرية)^(*) ، ومن الواضح أنها عقيدة وثنية مستوردة من الشرق منذ قرن مضى ، فى الوقت الذى أجدبت فيه مصايد سمك (إينزماوث) .. ويمكن فهم انتشار هذه العقيدة بين البسطاء الذين أرهقهم جنب البحر ، ثم عودة الصيد الوفير مع

(*) ديجون : معبود وشى فينيقى كان يصور كنصف إنسان ونصف سعة

ظهور هذه العقيدة ، وسرعان ما سيطرت على المدينة وحلت محل الماسونية وسط هؤلاء القوم .

وكانت هذه أسباباً ممتازة لمس (تلتون) التقيية كى تتفادى مدينة الانحلال العتيقة هذه ، لكن بالنسبة لى كانت حافزاً قوياً .. كانت ميولى التاريخية والمعمارية تتحرك ، وبصعوبة استطعت أن أغفو تلك الليلة فى غرفتى بينما الظلام يتلاشى .

* * *

وقبل العاشرة من الصباح التالي ، وقفت مع حقيبة صغيرة أمام صيدلية (هاموند) أنتظر حفلة (إينزماوث) . وإذ لنا موعد وصول الحافلة لاحظت أن المتسكعين يتعدون عن المكان . من الواضح أن موظف التذاكر لم يباليغ في وصف مقت السكان المحليين لـ (إينزماوث) . بعد دقائق ظهرت عربة متسخة بالية لتقف جوارى . وأدركت على الفور أنها العربة المقصودة ، وتحققت أكثر حين قرأت مسارها المكتوب على الزجاج ..

كان هناك ثلاثة مسافرين : رجال غير مهندمين بحقائب متسخة سرعان ما ترجلوا ونزلوا ، وكذا فعل السائق - (جو سارجنت) طبعاً - الذى اتجه إلى المتجر ليبتاع شيئاً ما . وحتى قبل أن أراه غمرنى شعور من النفور لا يمكن وصفه أو تفسيره .

وفهمت لم لا يرغب الأهالى فى ركوب حافلة يملكها ويقودها رجل كهذا ..

تأملته بعناية وهو يغادر المتجر وحاولت أن أفهم سر انطباعى الرهيب . كان رجلاً قصير القامة محنى الكتفين نحيلًا ، عمره نحو الخامسة والثلاثين ، لكن التجاعيد فى عنقه تعطيه سنًا أكبر ما لم تدرس وجهه بعناية . كانت له أذنان مشوهتان وله خدان رماديان بلا لحية ، ما عدا بضع شعيرات صفراء شحيحة تتلوى بلا انتظام . أما يداه فكانتا كبيرتين لهما لون أزرق رمادى غريب جدًا ، وأصابع قصيرة بالمقارنة بالكفين لاحظت كذلك مشيته المتناقلة وقدميه الهائلتين اللتين لأعرف كيف وجد لهما حذاءين . كان من الواضح أنه يعمل فى مهنة الصيد لأن السمك منحه بعضاً من رائحته المنفرة . لم أستطع تحديد نوع الدم الأجنبى الذى يحمله .. لم يبد لى ذا طابع آسيوى أو بحر

متوسطى أو زنجى .. لكننى كنت أرى لماذا يعتبره
الناس أجنبيًا .

تضايقت لفكرة عدم وجود ركاب آخرين ،
فإننى لم أحب قط فكرة الركوب وحيدًا مع هذا
السائق . لكننى فى النهاية قهرت مخاوفى ، وصعدت
إلى الحافلة وقلت له كلمة واحدة (إينزماوث) ..
لم يقل كلمة واحدة فجنست فى مقعد بعيدًا عنه
لكن فى ذات الصف ..

بدأت الحافلة البالية تتحرك باهتزازة ، ونظرت
عبر دخان العادم إلى الناس فى الشوارع فلاحظت
أنهم لا يرغبون فى النظر إلى الحافلة أو لا يرغبون فى
أن يبدوا ناظرين إليها . أخيرًا غادرت الحافلة المدينة ،
ومضت وسط خضرة الريف غير المتناهية .
ومن النافذة بدأت أرى البحر الأزرق بينما نحن
نعبر جزيرة (بلام) .. الآن دخلنا منطقة تعج

بالرمال ، ومن حين لآخر كنت أرقب بقايا البنايات
وجنوع الأشجار المبتورة ، فتذكرت ما كان يقال إن
هذه كانت يوما من أخصب الأراضى ، وأجملها ..
وأن التغيير جاء مع وباء عام 1846 وقد اعتقد
البسطاء أن له علاقة ما بقوى الشر الخفية .
السبب الحقيقى كان القطع الأحمق للأشجار قرب
الساحل ، مما حرم التربة من أفضل حماية لها ،
وفتح الباب للرمال تذروها الريح ..

كنت الآن ألقى (إينزماوث) وجهًا لوجه ..
كانت مساحة واسعة ملأى بالمبانى ، وبرغم هذا
كانت تعانى نقصًا غريبًا فى الحياة الواضحة . ومن
بعض المداخل كنت نادرًا ما ترى دخانًا ينبعث ..

كنا الآن ننحدر فى طريقنا وصار بوسعى أن
أرى عدة أسقف متآكلة ، ومن بينها رأيت السكة
الحديدية الصدئة المهجورة التى غمرتها الأعشاب ،
وأعمدة البرق التى لم تعد فيها أسلاك .. كنت أرى

المرفأ المهجور ، وبعيداً وسط البحر رأيت ما بدا لى
وسط المد كخط أسود ، يرتفع قليلاً فوق الماء
لكنه يوحى بشر قديم كامن ..

كان هذا كما عرفت على الفور (شرع
الشیطان) ..

لم نلق أحداً على الطريق ، لكننا بدأنا نرى مزارع
مهجورة فى درجات مختلفة من الخراب ، ثم
لاحظت بضعة منازل مأهولة وقد علقت الخرق فى
نوافذها ، وتبعثرت الأسماك الميتة فى أفنيئتها . ومن
حين لآخر كنت أرى أطفالاً لهم وجوه القردة يلعبون
على درجات السلالم المغطاة بالأعشاب . ورأيت
بعض الناس ، لكن شيئاً ما فى وجوههم وحركاتهم
لم يرق لى كثيراً وإن كنت لم أجد لهذا تفسيراً .
ربما رأيت صورة كهذه فى كتاب يوماً ما ، وفى
ظروف معينة من الرعب أو الحزن ، إلا أن هذا
الانطباع فارقتى سريعاً .

وما كان لى أن أصل إلى وجهتى من دون انطباع منفر
قوى ، فقد وصلت الحافلة إلى تقاطع به كنائس على
الجانبين وبقايا خضرة فى المركز .. ونظرت إلى
البنية العالية عن يمينى ، بلونها الذى كان أبيض
ثم استحال رمادياً متساقطاً ، وكانت اللافتة قد
زالت أكثر كتابتها الذهبية ، لكنى بصعوبة استطعت
قراءة كلمات (طريقة ديجون السرية) . فهذه إذن
كانت الكنيسة التى تحولت الى ديانة سرية منحلة .

تشتت انتباهى لسماع جرس مشروخ عبر
الشارع ، فاستدرت سريعاً لأنظر من النافذة .. كان
الصوت قادمًا من كنيسة صخرية يبدو أنها من
تاريخ أحدث من المباني هنا ، وكانت مبنية على
طرز قوطى غير متقن . وبرغم أن عقارب الساعة
عليها كانت ضائعة فإبنى عرفت أنها تعلن الساعة
الحادية عشرة ..

وفجأة غاب إحساسى بالوقت وسط هلع تملكنى
قبل أن أتبين حقيقته ..

كان باب الكنيسة مفتوحاً يُظهر مستطيلاً من
السواد بالداخل ثم عبر شيء ما السواد ، ليشعل فى
ذهنى ما يذكرنى بالكوابيس ، وإن كنت لا أفهم
ما الكابوسى فيه بالضبط .

كان كائناً حياً ولو كنت أكثر اطمئناناً لما وجدت
ما يخيف فيه . من الواضح أن هذا كان الكاهن
يرتدى رداءً خاصاً بـ (طريقة ديجون السرية) منذ
بدلت تلك الأخيرة طقوس الكنائس المحلية . ربما
كان الشيء الذى حرك ذلك الفرع فى لوعى هو
تلك العمامة العجيبة التى يضعها على رأسه ،
وهى نسخة بالضبط من التى رأيتها أمس مع
مس (تيلتون) ..

الآن صرت أرى عدداً بسيطاً من الشباب منفرى
الشكل على جانبي الطريق .. وكانت الطوابق
السفلى من المنازل تؤوى أحياناً متاجر ذات
لافتات قذرة . كنت أسمع صوت تدفق مياه يزداد
ارتفاعاً ، ثم عبرت الحافلة جسراً فوق نهر صغير ،

واستطعت أن أرى شلالين عن بعد ، بينما صخب
المياه قد صار يصم الآذان .. وأخيراً رأيت مبنى
قديمًا تقول لافتته إن هذا هو (بيت جيلمان) ..

سررتى أن أترك الحافلة ، وترجلت حاملاً حقبيتى
إلى قاعة استقبال الفندق لأتركها هناك .. كان
هناك شخص واحد .. رجل مسن لا يحمل ما بدأت
أسميه (سحنة إينزماوث) ، وقررت ألا أسأله أيًا
من الأسئلة التى تورقتى ..

غادرت الفندق وبدأت أتفقد المكان حولى ، ثم
خطر لى أن أتجه إلى أحد محلات البقالة وهو
محل من سلسلة محلات لها فروع فى كل البلاد ،
لأننى افترضت أن العاملين به غالباً ليسوا من
مواطنى (إينزماوث) الأصليين .

كان هناك فتى وحيد فى السابعة عشرة من
عمره ، وسررتى أن أتبين ذكاهه ولطفه الواعدين
بمعلومات وافرة . وقد أدركت من اللحظة الأولى

بألا ينضم إلى أية كنيسة من كنائس (إينزماوث)
العجيبة ..

أما عن أهل (إينزماوث) فالفتى لا يملك
تصورًا معينًا بصددهم .. إنهم أكثر حذرًا وتواريًا
من الحيوانات فى ججورها .. وهم متفاهمون
منسجمون تمامًا ويحتقرون العالم الخارجى كأنهم
يعرفون حقائق أخرى للوجود . إن عيونهم التى
لا ترمش تجعل رؤيتهم صادمة ، كما أن أصواتهم
منفرة ، تشير الاشمنزاز حين تسمعهم ينشدون
ليلاً فى كنائسهم ، خاصة فى أعيادهم التى تقع
مرتين فى العام : فى 30 إبريل و 31 أكتوبر .

كانوا يحبون الماء بشدة ، ويسبحون كثيراً
جداً ، ويتسابقون نحو (شراع الشيطان) . ولو
فكرت فى الأمر لوجدت أن الشباب منهم كانوا
الأكثر ظهوراً للعيان بينما شيوخهم هم الأكثر

أنه لا يحب المكان ولا رائحته السمكية الكريهة
ولا قومه المخيفين . كان من (آرخام) ولم يكن
يود ولا أسرته أن يعمل فى (إينزماوث) ، لكن
سلسلة محلات البقالة أرسلته إلى هنا برغمه ،
وما كان راغباً فى أن يفقد عمله .

قال لى : إنه لا توجد غرفة تجارية فى
(إينزماوث) ولا مكتبة عامة ، وإننى لا يجب أن
أظهر شمالى النهر لأن القوم هناك عدائون
أجلاف . بعض الأماكن محرمة تماماً كما تعلم ،
لا يجب - مثلاً - أن يدنو المرء كثيراً من مصفاة
(مارش) أو الكنائس أو قرب المبنى الخاص
بـ (طريقة ديجون السرية) . يبدو أن هذه الكنائس
تمارس عقائد غامضة غير مقبولة ولا تقرها باقى
كنائس البلاد .. ويبدو أن بعض هذه الطقوس تتضمن
نوفاً من الخلود - بشكل ما - على الأرض .. لقد نصح
د . (والاس) - قس الفتى فى (آرخام) - تلميذه

قبحاً وتشوهاً . وكان الشاب واثقاً من أن هناك من هم في حالة أسوأ داخل بيوتهم المغلقة ، ولربما في أنفاق مجهولة تزعم القصص وجودها .

قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين .. الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جداً لكنه طبيعى المنظر ، يعيش فى شمال المدينة فى مبنى (المطافئ) الأيل للسقوط . هذا الرجل العتيق يدعى (زادوك ألن) وعمره 69 عاماً .. مخبول نوعاً بالإضافة إلى أنه سكير المدينة . إنه يحكى حكايات كثيرة لاتصدق أكثرها وليدة خياله المضطرب ، لكن المواطنين لا يحبون أن يروه يتكلم مع الغرباء . وربما كان هو مصدر أكثر الإشاعات التى يتداولها القوم .

لم يكن واحد من غير المواطنين يجروء على البقاء خارجاً فى ساعة متأخرة ، ويقال إن هذا غير آمن عموماً . بالإضافة إلى أن الشوارع تكون مظلمة بشكل مخيف .



قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين .. الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جداً ..

اليوم ، وانتويت أن أجوب الشوارع وأثرثر مع كل من يبدو غريباً عن البلدة ، ثم أركب عربة الثامنة مساء المتجهة إلى (آرخام) .

بالطبع يتزايد الذعر الذى يسببه بيت مهجور ، بمتواليه هندسية أكثر منها عددية ، حين يتعلق الأمر بمدينة كاملة مهجورة . إن فكرة الخواء اللامتاهى الذى لم يعد يحوى سوى خيوط العناكب والذكريات والديدان الناخرة ، لفكرة تثير الهلع ولا تقدر أكثر الفلسفات مادية على قهرها . وكلما ابتعدت أكثر عن مركز المدينة كنت أرى وجوه القوم تتسم أكثر بسحنة (اينزماوث) التى ألفتها .. يبدو أن الغرباء عاشوا عند أطراف المدينة فقط ، ما لم تكن سحنة (اينزماوث) هذه مرضاً أكثر منها صفة وراثية .. عندها يكون المرضى أكثر احتشاداً عند أطراف المدينة .. الحق أن (اينزماوث) بدأت تضغط أكثر فأكثر على أعصابى ..

كان العجوز (مارش) يعيش متوارياً تاركاً إدارة المصفاة لأحفاده ، ومن الواضح أن هؤلاء يعانون من مرض عضال .. كانت إحدى بناته لها منظر مروع شبيهه بالسحلية وترتدى مجوهرات عجيبة ، ربما من نفس الطراز الذى كانت العمامة تنتمى إليه . ويرتدى القساوسة أو الكهنة أو أيّاً ما كان اسمهم هنا نفس المجوهرات على رعوسهم ، لكن من العسير حقاً أن تتبين ملامحهم من قريب . وكانت هناك ثلاث أسر مهمة فى المدينة هى (آل ويت) و (آل جيلمان) و (آل إليوت) .

أخبرنى الفتى كذلك أن أكثر علامات الشوارع قد تلفت ، لذا رسم لى كروكياً خشناً لكنه مفيد للغاية ، لأهم معالم المدينة . وقد تبينت أهميته على الفور ووضعتة فى جيبى مع السكر العميق . ولما لم يرق لى منظر المطعم ، فقد ابتعت بعض مقرمشات الجبن وكعك الزنجبيل ليكون غدائى

هنا رأيت مبنى (المطافئ) المتداعى على يسارى ،
ولاحظت الوجه المحتقن والعينين الدامعتين للرجل
العجوز الذى يرتدى الأسمال ، والجالس أمام البناية
يثرثر مع رجلى إطفاء رثى المظهر ، لكن ملامحهما
طبيعية . بالتأكيد هذا هو (زادوك ألن) .. العجوز
التسعينى السكير نصف المجنون ، الذى يملك حكايات
مذهلة ومخيفة عن (إينزماوث) .

★ ★ ★

وما ضابقتى بصفة خاصة هو تلك الأصوات
القادمة من حيث لا تدرى .. إنها أصوات تصر
وتخشد .. أصوات خشنة مثيرة للريبة ..
وتساءلت فى نفسى عن كيف تبدو أصوات هؤلاء
القوم .. الغريب أننى حتى هذه اللحظة لم أسمع
أحدهم يتكلم ..

مشيت فى الشوارع نحو شمال البلدة ، وأثار
دهشتى أنه لا توجد قطط ولا كلاب فى (إينزماوث) ..
السرية والتوارى هما الأساس فى هذه المدينة
الخرساء الملقى بالموت والاعتراب . كان الجسر
غير الآمن أمامى الآن وعليه لافتات تحذير ،
لكنى قررت المجازفة وعبرت إلى الناحية الجنوبية ..
كانت هناك عيون لا تطرف ترمقتى فى فضول
واهتمام صامتين ، والحقيقة أن (إينزماوث)
صارت لا نطاق أكثر فأكثر بالنسبة لى .. وقررت
أن أبحث عن مركبة تنقلنى إلى (آرخام) مبكراً
قبل موعد الحافلة الذى بدا لى الآن بعيداً جداً ..

وكنت أعلم أنني لن أستطيع أن أبادره بالكلام ،
لأن رجلى الإطفاء سيلاحظان ويعترضان ، ،
وبدلاً من هذا قررت أن أبتاع زجاجة من الشراب ،
وأجول بشكل عارض قرب الرجل حتى يلاحظها ..
اتجهت إلى متجر بقالة قريب فاشتريت زجاجة
بسعر ليس بالزهد ، ثم عدت .. وكان الحظ حليفي
لأننى وجدت العجوز يبتعد نحو منحى (بيت
جيلمان) . وطبقاً لخطتى مررت أمامه مستعرضاً
ما اشتريت ، وشعرت به يقفو أثرى ، فرحت أمشى
قاصداً أكثر البقاع عزلة لأجذبه إليها .. كنت أفكر
فى الواجهة الجنوبية المهجورة للبحر ، وهى
نقطة مررت بها منذ قليل .. هناك لن يرانا أحد
ولسوف نجد مقعدين حجريين عتيقين يمكن أن
نجلس عليهما ونتكلم . وقبل أن أصل إلى الشارع
الرئيسى سمعت صوتاً خافتاً يعانى من الربو يقول :

« هيه يا سيد ! »

3

لا بد أنها كانت جذبة ساخرة من قوى خفية
مظلمة ، تلك التى جعلتنى أبدل خططى كما فعلت .
كنت من قبل قد آليت أن أقصر ملاحظاتى على
المعمار فقط ، بل وكنت أبحث عن طريقة عاجلة
أغادر بها مدينة الموت والتحلل هذه .. لكن مرأى
(زادوك ألن) جعلنى أخفف الخطو رويداً متردداً .

كان الفتى قد أنذرنى بالأأأتكلم مع العجوز علناً ،
لكن فكرة الذكريات الشائخة لدى الرجل عن
اضمحلال هذه المدينة ، وعن أيام المصانع الكبيرة
والسفن ، كانت إغراء لا تستطيع أية حكمة أن
تقاومة . فلا بد أن العجوز رأى كل ما حدث فى
(اينزماوث) منذ تسعين عاما ..

فسمحت للعجوز أن يلحق بى ويأخذ جرعات كبيرة من الزجاجة . وبدأنا نمشى معاً وسط الخرائب والعزلة التى تحيط بالكون من حولنا ، لكنى وجدت أن لسان الشيخ لم تنحل عقدهته بالسرعة التى توقعتها . ووجدنا موضعاً صالحاً لمحادثتنا السرية بين الأشجار . فدعوت الرجل إلى الجلوس بين الصخور المكسوة بالطحالب . كان الجو يفوح برائحة الموت ، وكانت روائح الأسماك منفرة ، لكننى صممت ألا يعوقنى شيء .. لو أردت اللحاق بحافلة (آرхам) فليس لدى من الوقت سوى أربع ساعات ..

قدمت للرجل المزيد من الجرعات ، بينما رحلتهم طعام غدائى الرخيص . وحرصت ألا أقدم له أكثر من اللازم كى لا تتحول ثرثرته إلى غيبوبة .. لكن لخيبة أملى ظل الرجل يتحاشى الكلام عن (اينزماوث) والظل الذى يغطى ماضيها ، وراح يثرثر فى مواضيع أخرى كأخبار الصحف وقد

ظهر أنه عليم بها ، وإن كان مولعاً بفلسفتها بالطريقة الريفية المعتادة .

بعد ساعة بدا أن الزجاجة لن تكفى للظفر بنتائج من الرجل ، وهنا قدم لى الحظ الفرصة التى لم تستطع أسئلتى أن تقدمها .. كان ظهري للبحر الذى يفوح برائحة الأسماك ، وكان هو يواجهه ، وقد حدث شيء جعله يثبت عينيه على خط (شرع الشيطان) البعيد الظاهر فوق الأمواج . يبدو أن المنظر لم يرق له ، لأنه بدأ سلسلة من عبارات السباب الواهنة انتهت بهمس مكتوم . وأمسك بياقة معطفى وراح يفح بتلميحات لا يمكن أن تخطئها ..

- « هناك حيث بدأ كل شيء .. نلك المكان الملعون الزاخر بكل الشرور حيث تبدأ المياه العميقة .. بوابة الجحيم .. القبطان (أوبد) العجوز هو من فعلها .. هو من وجد ما ليس خيراً له فى جزر البحار الجنوبية .. » الكل كان فى حالة سيئة وقتها .. التجارة

سيئة .. المطاحن تخسر .. أفضل رجالنا ماتوا فى
حرب 1812 أو فقدوا .. لكن (أوبد مارش) كانت
لديه ثلاث سفن : (كولومبى) و (هيفتى)
و (ملكة سومطرة) ..

« ما كان أحد مثل (أوبد مارش) .. الشيطان
العجوز .. هه هه ! لقد دعا القوم إلى أن يتبعوه ،
وأن يطيعوه فى طقوس شيطانية .. عسى أن تنجح
القرابين فى إعادة السمك إلى سواحلهم .. (مات
إليوت) صديقه تكلم كثيرا أيضا .. تكلم عن
جزيرة شرق (تاهيتى) حيث الكثير من الخرائب
الحجرية ، التى هى أقدم مما يتصور أى مخلوق ..
توجد وجوه منحوتة للتماثيل شبيهة بما تراه فى
تماثيل جزيرة (عيد الفصح)^(*) .. تماثيل متآكلة
* جزيرة عيد الفصح : من أهم الجزر التى ألهمت خيال الكتّاب ..
الجزيرة جزء من (شيللى) فى جنوب المحيط الهادى ، وقد اكتشفها
الهولنديون يوم عيد الفصح عام 1722 ، وتشتهر بالوجوه الحجرية
المخيفة والغامضة المنحوتة من الحجر البركاني ، على سواحلها ..

كأنما كان البحر يغمرها يوما ، وعليها وجوه وحوش
مفرجة .. وكان (مات) يا سيدى يزعم أن الأهالى
لديهم كل السمك الذى يشتهون .. لديهم حلى
وأساور ، ولديهم أسماك تشبه الضفادع ، وضفادع
تشبه الأسماك ، وقد رسموها على كل أحجار
جزيرتهم ..

« وكانت كل الجزر المجاورة تتساعل عن مصدر
ظفر كل هؤلاء القوم بالأسماك ، بينما هم يعانون
من شحتها .. لقد تساعل (مات) عن هذا ،
ومعه تساعل القبطان (أوبد) . لاحظ الرجلان
أيضا أن عددا لابأس به من الشباب يرحلون كل
عام ، فلا يعودون أبدا ، وأنه لم يكن ثمة الكثير
من الشيوخ .. لقد احتاج (أوبد) إلى جهد جهيد
ليعرف سرهم .. لا أدرى كيف فعلها لكنه بالتأكيد
قايضهم كثيرا ..

« وأخيرا ظفر بالسر من كبيرهم (والاى) كما

كانوا يسمونه .. لم يكن أحد ليصدق حرفاً يلفظه
الوثني العجوز ، لكن (أوبد) كان يقرأ الناس كأنهم
كتب .. هه هه ! بالمثل لا أحد يصدق حرفاً مما
أقول الآن ، وأعرف أنك أنت أيضاً لن تفعل أيها
الشباب .. برغم أن لك عينين حادتين قارئتين كعيني
(أوبد) .

« يبدو أن أولئك القوم كانوا يضحون بعدد
كبير من شبابهم وبناتهم من أجل تلك الشياطين
التي تعيش تحت الماء ، وينالون مزايا كثيرة
مقابل هذا .. وهم يرسمونها كأسماك تشبه
الضفادع أو ضفادع تشبه الأسماك ، على كل
أحجار جزيرتهم .. يبدو أن هذه الشياطين تعيش
في مدن في قاع البحر ، وقد عرف المواطنون
هذه الحقيقة ، وتعلموا كيف يتعايشون معها ،
وكيف يضحون بعدد معين مرتين كل عام ، وفي
المقابل يجيء لهم السمك من كل أرجاء البحر ،
وربما بعض الحلى الثمينة من حين لآخر ..

« وبمرور الوقت صارت هذه الشياطين قادرة
على زيارة الجزيرة والاختلاط بأهلها .. ويبدو أن
تزوجا حدث بينها وبين أهل الجزيرة . وعرف
البشر من شياطين البحر أنه لو حدث اختلاط في
الدماء ، فإن الذرية تبدو أولاً أقرب إلى البشر ،
وبمرور الوقت تغدو أقرب إلى الوحوش ، ثم سرعان
ما تعود للبحر لاحقاً بأسلافها القديمين .. ولقد
رأى (أوبد) بنفسه كيف ينمو الصغار ، ويتحولون
يوماً فيوماً إلى وحوش ، ثم سرعان ما يرحلون
إلى المحيط .. هناك من يولدون وهم يشبهون
الوحوش بشدة ، وسرعان ما يتحول هؤلاء
سريعاً .. أما البعض فيتأخر في التحول ربما إلى
سن السبعين ، لكنه في النهاية يرحل لاحقاً
بأسلافه .. ومن الغريب أن هذه الذرية تكون
منيعاً تماماً ما لم تقتل قتلاً ..

« لا بد أن (أوبد) بدأ الفكرة حين سمعها من

(والاكي) ، ولم يكن هذا الأخير يحوى قطرة من دم الأسماك - الضفادع ، لأنه من سلالة ملكية لا يجوز خلط دمائها بدماء أخرى .. وقد أعطاه الملك تعويذة من الرصاص قال إنها تجذب الأسماك من أى مكان فى الماء ، والفكرة أن تلقىها فى الماء مع بعض الأدعية المناسبة . لم يحب (مات) هذا كله وطالب بترك الجزيرة حالاً ، لكن (أوبد) راقت له فكرة الثراء والظفر بمزيد من تلك الحلوى الغامضة ، وهى التى عاد بها إلى (إينزماوث) وبنى مصفاة الذهب .

« حسن .. ثم جاء العام 1838 حين كنت أنا طفلاً فى السابعة .. عاد (أوبد) إلى الجزيرة الوثنية فوجد قومها قد أبيدوا ، وكل مباتى الجزيرة قد تحولت إلى خرائب ، ولم تعد هناك حلوى واحدة .. لا بد أن أهالى الجزر المجاورة شعروا بما يدور ، وقرروا

الخلاص منهم .. فقط وجد (أوبد) صخوراً عليها أشياء يمكن أن تسميها (سواستيكا) .. ربما كانت هذه علامات الأسلاف .. لا بد أن هذا أحرزته حقاً خاصة أنه كان يمر بظروف سيئة .. وبالطبع حين يعانى صاحب السفن يعانى البحارة أكثر ..

« وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك ، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة .. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كي يعاونوه .. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على (ملكة سومطرة) ما ينتويه ، وارتجفوا إذ تذكروا شياطين البحر ، بينما تحمس الباقون .. »

هنا توقف الرجل عن الكلام ، وغرق فى صمت مخيف ، وراح ينظر فى عصبية من فوق كتفه ، وحين كلمته لم يرد على فقررت أن أجعله

يذهبون إلى (شرع الشيطان) ليلاً كي ينشدوا
أناشيد تسمعها كل المدينة ؟ ولماذا كان يلقي
بأجسام غامضة في الماء ؟ ولماذا يلبس
خورية الكنيسة الجديدة التي أنشأها (أوبد) تلك
الأشياء الغريبة على رؤوسهم ليبدوا كشياطين
البحار ؟ »

كانت عيناه متوحشتين الآن ولحيته البيضاء
المتسخة تلتمع ، وقد رآني (زادوك) أترجع في
ذعر لأنه يضحك في شيطانية :

- « هه هه هه ! هل من أحد رأى أو سمع
شيئاً عن (حيرام جيلمان) ؟ وماذا عن (نك
بيرس) ؟ و (لولى ويت) ؟ كنت صبيّاً أسرق قارب
أبي وأتسلل إلى (شرع الشيطان) وأسمع الأجساد
الثقيلة تهوى في الماء .. وبدأت أحوال الجزيرة
تتجسن .. السمك يحتشد ، والحلى تظهر ، والدخان

ينهى الزجاجاة .. إن القصة المخبولة التي كان
يحكيها لي قد شدتني .. لم أصدق لحظة واحدة
أنها حقيقية ، لكني أدركت أن بها رائحة الحقيقة ،
وقد عالجتها مخيلة نشطة بارعة .. تركته ينهى
الزجاجاة حتى آخر قطرة ، وأذهلني أن صوته لم
يثقل لحظة .. راح يغمغم ، فدنوت منه لأستمع ..
حقاً كان يقول كلمات لها معنى :

- « (مات) المسكين .. (مات) كان يعارض
هذا وقد حاول إقناع القوم ، لكنهم لم يقتنعوا ..
لقد طردوا الخوري الطائفي من البلدة ، وتلاه
القس الميثودي .. ولم أرى خوري العماد قط من
ساعتها .. كنت صغيراً لكنني عرفت وسمعت كل
هذا ..

« أنت لا تصدقني .. أليس كذلك ؟ إذن قل لي
لماذا كان القبطان (أوبد) ومعه عشرون رجلاً ،

ينبعث من المصفاة .. الله (تعالى) يعلم حجم
حمولات السمك التي كنا نبيعها فى (آرخام) ..
وجاء بعض صيادين من الخارج ليحربوا حظهم ،
لكنهم كانوا يختفون فلا تسمع عنهم ثانية ..
لا أحسب أن (أوبد) كان يفكر فى خلط الدماء مع
شياطين البحر ، بل كان المعدن الثمين هو جل
ما يريد .. لكن هذا تم بالتدريج وبدأت سلالة
هجينة تظهر فى المدينة . بل إن ابنة (أوبد
مارش) التى أنجبها من إحدى شيطانات البحر ،
قد تزوجت من رجل محترم من (آرخام) .. والبائس
لم يشك فى شىء لأن منظرها كان طبيعياً تماماً ..

« بدأت إشاعات تتردد فى المدن المجاورة عما
يحدث فى (شرع الشيطان) ، وكنت أنا من أخبر
المختار (مانورت) ببعض ما يحدث فى سكون
الليل .. وعندما جاء الليل .. اتجه بعض الرجال
فى قارب إلى هناك ، وسمعنا طلقات الرصاص ،

وبعد هذا اقتادوا (أوبد) وثلاثين من رجاله إلى
السجن ، وهكذا مرت فترة طويلة لم تقدم فيها
القرايين لأولئك الأسلاف ...

« وفى تلك الليلة المريعة .. رأيتهم .. منات
منهم .. كلهم حول (شرع الشيطان) ويسبحون نحو
المرفأ .. رباه ! ماحدث فى شوارع (اينزماوث)
ليلتها ! قرعوا بابنا لكن أبى لم يفتح .. ثم غادر
من نافذة المطبخ حاملاً بندقيته ليرى ما سيفعله
المختار (مانورت) .. منات الموتى والمحتضرين ..
طلقات رصاص .. اتفتحت الزنازين .. خيانه .. لقد
حسب القوم أنه الوباء حين دخلوا (اينزماوث)
ووجدوا نصف أهلها مفقودين .. لم يبق
سوى أتباع (أوبد) .. ولم أسمع قط عن أبى من
وقتها ..

وعاد (أوبد) ليعلن أنه صار الحاكم المطلق ،

وأن على الجميع طاعته والانضمام لعقيدة (داجون) ..
سيبدو كل شيء طبيعياً أمام العالم الخارجى ، لكننا
سنتحاشى الغرباء وننظر بالحياء منهم .. كتولو
فتاجن ! فنجلوى مجلونافه .. كتولو ريليه .. وجاه
ناجل فتاجا ! »

كان البانس يهذى بشدة .. كان يبكى والدموع
تغرق لحيته ..

« رباه ! ما هذا الذى رأيت و أنا فى الخامسة
عشرة ! مين مين .. تىكل أوفارزين .. لقد أقسمت
أن أتبعه لأظل حياً .. أقسمت أول قسمين لكنى لم
أجسر على أن أقسم الثالث .. »

وبدا يحاول التماسك وهو يرمق المد يتزايد من
بعيد .. راح يتكلم بصوت عال ليشجع نفسه :

- « هيه .. لم لا تقول شيئاً ؟ كيف تحب أن تعيش
فى مدينة كهذه ، تملؤها شياطين البحر فى كل



كان البانس يهذى بشدة .. كان يبكى
والدموع تغرق لحيته

مكان ، ينبحون و يعوون ليلاً .. تسمعهم من
مبنى الكنيسة الذى صار الآن (طريقة ديجون
الخفية) ؟ »

كان يصرخ الآن فعلاً ، وقد أثار هذا هلعى
بحق ..

- « سحقا لك ! لاتجلس ترمقتى بعينيك هذين ..
هل تريد أن تعرف الرعب الحقيقى ؟ ها هو ذا ..
إنه ليس ما فعلته تلك الشياطين بل ما سوف
تفعله .. سوف تجلب أشياء من البحر ..
وعندها .. »

كان وجهه الآن قد التوى بالخوف حتى صار
قناعاً تراجيدياً إغريقياً .. وعيناه فعلياً فارقتا
المحجرين .. ومخالبه تتعلق بكتفى .. كان ينظر
إلى البحر مذعوراً ، ويهزنى وقد صار صوته
أدنى إلى الهمس :

« ارحل من هنا .. ارحل من هنا .. لقد
رأونا .. فر بحياتك ! غادر هذه المدينة ! »

وقبل أن أفهم كان قد أرخى قبضته عن
كتفى ، وراح يركض مبتعداً عن البحر .. نظرت
للماء فلم أر ما يريب .. وحين وصلت إلى
(ووتر ستريت) ونظرت إلى الشمال ، لم يكن من
أثر لـ (زادوك ألن) .

★ ★ ★

من العسير أن أصف المزاج الذى كنت فيه ،
بسبب هذه القصة .. قصة غدت فجأة مجنونة
ومثيرة للرغبة ، شاذة ومفرعة . لقد أنذرنى
صبى البقالة ، لكن الحقيقة تركنتى حائرًا مضطربًا .
فيما بعد يمكننى أن أمحص القصة ، وأجد
فيها دلالة تاريخية ما ، أما الآن فأنا أريد طردها
من ذهنى ..

إن الوقت قد تأخر .. وساعتى تقول إنها
السابعة والربع ، وسوف تتحرك حافلة (آرхам)
فى الثامنة . لهذا مشيت مسرعًا عبر الشوارع
الخالية نحو الفندق حيث تركت حقيبتى ، وحيث
يمكننى اللحاق بالحافلة ..

كنت أنظر من فوق كتفى من حين لآخر ،
وخطر لى كم سيكون بهيجًا أن أترك (اينزماوث)
كريهة الرائحة ، التى يظللها الخوف .. برغم هذا
لم أذع عينى تفوت بعض الطرز المعمارية
الجميلة هنا وهناك ..

وصلت إلى شارع (فول) فوجدت مجموعات
متناثرة من القوم الهامسين ، وحين وصلت أخيرًا
إلى فندق (جيلمان) وجدت أن أكثر المتسكعين
يحتشدون أمام بابه . وبدا لى أن عيونًا مبتلة
جاحظة كثيرة راحت ترمقتى وأنا أسترد حقيبتى
بالداخل ، وتمنيت ألا يرافقتى واحد من هذه
المخلوقات الكريهة فى رحلتى ..

وصلت الحافلة مبكرًا قبل الثامنة ، وبها ثلاثة
ركاب ، وتبادل شخص شيطانى المظهر بضع
كلمات غير واضحة مع السائق .. ترجل السائق

دفعت الدولار وصعدت ثلاثة طوابق وراء
الموظف غريب المنظر ، وكان الفندق خاليًا من
الحياة تمامًا ..

وكانت غرفتي كنيية ذات نافذتين وأثاث رخيص ،
تطل على ساحة قدرة تنتثر فيها قطع القرميد .
ومن بعيد ترى ريفًا يغص بالمستنقعات ..

كان النهار لم يرحل بعد ، فنزلت إلى الميدان
وبحثت عن مكان أتناول فيه عشائي .. ولأن
البقالة كانت مغلقة ، فقد قررت أن أجازف بتجربة
المطعم ، وكان صاحبه رجلًا منحنى الظهر له يدان
غليظتان إلى حد لا يصدق ، وله عينان جاحظتان
لا ترمشان .. وسرني أن أكثر الطعام يؤخذ من
علب محفوظة .. ووجدت أن سلطانية من الحساء
مع بعض المقرمشات تكفيني ، فسرعان ما عدت
إلى غرفتي الكنيية في (جيلمان) ..

نحو الفندق ، بينما نزل الركاب وتبادلوا بضع
كلمات مع متسكع بلغة أكاد أن أقسم إنها ليست
الإنجليزية ..

صعدت إلى الحافلة واتخذت المقعد ذاته ، حين
صعد (سارجنت) وغمغم ببضع كلمات بصوت
حلقى منفر .. فهمت أنني تعس الحظ بشدة ..
ثمة مشاكل مع المحرك ولن يستطيع الوصول إلى
(آر خام) .. لا .. غالبًا لن يتم إصلاحه الليلة ،
وما من سبل أخرى لمغادرة (اينزماوث) ..
ربما كان على أن أبيت في (جيلمان) .. ولربما
أجرى لي الموظف تخفيضًا ، لكن ما من شيء
يمكن عمله ..

عدت إلى الفندق كارها فكرة المبيت في هذه
البلدة ، فأخبرني الموظف أن بوسعي المبيت في
الغرفة 428 مقابل دولار ، وهي واسعة ولكن ليس
بها ماء حار ..

ودنا الليل فأضأت المصباح الكهربى المعلق فوق
السريـر المعنى الرخيـص ، ورحت أقرأ جريدة وجديتها
لدى الموظف .. وشعرت بحاجتى لأن أبقى عقلى شارداً
كى لا أفكر فى غرائب تلك المدينة ، بينما أنا داخل
حدودها .. وكان على أن أبقى وجهه سكير القرية
المجنون بعيداً عن أحلامى قدر الإمكان ..

لربما كان هذا هيناً لو أن الغرفة لم تكن عفنة
الرائحة هكذا ، ولو لم تتحد رائحتها مع رائحة
القرية الزفرة لتصنع فى ذهنى مزيجاً من الموت
والتحلل .. بالإضافة لهذا ضايقتى عدم وجود
مزلاج على باب حجرتى .. ولاحظت أنه منتزع
منذ وقت ليس بالبعيد ..

وجدت مزلاجاً على باب خزانة الثياب فقررت
أن أنتزعه وأثبتته على الباب على سبيل الاطمئنان ،
ونجحت فى هذا باستعمال أداة من طراز (ثلاثة
فى واحد) أحملها فى جيبي ، كان من ضمن

ما تقدمه لك مفك برغى .. ونظرت إلى بابين
جانبين - أحدهما شمالي والآخر جنوبى - فوجدت
على كل منهما مزلاجاً مغلقاً بحالة جيدة ..

شعرت براحة ليس لكونى أهاب خطراً ما ، ولكن
لكون أى سبيل للأمان الشخصى شيئاً محبباً فى
هذه البيئة المقلقة . قررت كذلك أن أنام بثيابى
كاملة باستثناء الحذاء ، وأخرجت من حقيبتى كشافاً
صغيراً دسسته فى جيبي حتى إذا ما صحوت ليلاً ،
أمكننى رؤية ساعتى على ضوء الكشاف .

لكن النعاس لم يأت .. وحين حللت أفكارى ،
وجدت لدهشتى أننى أصغى لشيء ما .. نعم ..
كنت أصغى لشيء ما أهابه لكننى لا أستطيع
تسميته .. سمعت صوت صرير على السلم ، وهو
صوت لم أحبه كثيراً .. وتساءلت عما إذا كان من
الحكمة أن أخلد للنوم أصلاً ؟ هذه مدينة غريبة

بها قوم غرباء ، ولقد اختفى الكثيرون هنا .. أترى
هذا فندقًا من تلك الفنادق التى يذبح نزلؤها
لسرقتهم ؟ ليس فى مظهرى ما يوحى ببراء زائد ..
أم ترى هؤلاء القوم فعلاً يحنقون علىّ بسبب
اتصالى بالسكير وفضولى الزائد ؟

فى النهاية غلبنى تعب ليست له علاقة بالنعاس ،
وصحوت منه على ذلك الصوت المؤكد الذى
لا ريب فيه ، والذى يؤكد أننى كنت على حق فى
مخاوفى .. كان هناك ذلك الصوت لقفل باب
حجرتى يجرب أحدهم فيه مفتاحًا .. بحذر ..
بسرية .. بتردد !

صدمنى ذلك التبدل فى التهديد من توجس
غامض إلى حقيقة آتية ، وسقط علىّ كضربة
قوية .. ولم أشك لحظة فى أن يكون هذا العبث
فى القفل وليد غلطة .

ثم توقف العبث .. وبعد قليل سمعت صوت عبث
آخر بالمفتاح فى باب جانبى من البابين الآخرين
فى حجرتى .. بالطبع ظل المزلاج ثابتًا ، وهكذا
رحل المتسلل ، وبعد قليل تكرر الصوت الناعم ..
هذه المرة من الباب الآخر فى حجرتى .. ثم عاد
الصرير ، وأدركت أن المتسلل قد فهم أن الأبواب
كلها موصدة ، وتخلّى عن المحاولة مؤقتًا ..

لا أدرى لماذا صار القرار واضحًا فى ذهنى .
إن هذا العبث فى الأقفال شخص لا ينبغى لقاؤه
أو التعامل معه .. يجب أن أفر من الفندق حالًا ..
أضأت المصباح فوق فراشى فلم يحدث شيء ..
لقد انقطعت الكهرباء .. واضح أن عملاً شريراً
غامضًا يدور على أوسع نطاق .. لكن ما هو
لا أعرف .. استعددت لمغادرة المكان ، فمشيت
على أطراف أصابعى نحو النافذة .. لم يكن هناك
سلم حريق عند هذا الجانب من الفندق .. لن أخرج

من هنا ولا من الباب الرئيسي .. لربما كانت
فرصتى فى البابين الجانبيين .. سأفتح الباب
برغم المزاليج مستعملاً كتفى .. لن يكون هذا
عسيراً بالنسبة لبنية البيت المتداعية .. لكن ليس
من دون ضوضاء طبعاً ..

قمت بتدعيم باب الغرفة الرئيسي باستعمال
المكتب ، ورحت أفكر فى مدى هشاشة فرصى ..
حتى لو خرجت من الغرفة فلن يكون بوسعى
استعمال السلم .. سأحاول دخول غرفة أخرى يكون
وضعها أسهل فى الوثب لأسفل .. ثم سيكون على
مغادرة المدينة ..

كنت أعرف أن السبيل لمغادرة المدينة هو نحو
الجنوب ، لذا تركزت عيناى على الباب الجنوبي فى
غرفتى .. كان مصممًا لينفتح فى اتجاهى .. ليس
هذا بابًا مفضلًا للاقتحام إذن .. وضعت الفراش
خلفه لأمنع اقتحامه ، ثم اتجهت إلى الباب
الشمالى .. وعرفت أن هذا مخرجى ..

كنت أفكر بعمق ، حين عاد صوت صرير
الأرضية يتردد .. كان أعلى وأثقل .. وتوهج
ضوء عابر عبر شراعة الباب .. وراحت ألواح
الخشب فى الممر تنن تحت ثقل عظيم .. ثم فى
النهاية دوت طرقة حازمة على بابى ..

للحظة حبست أنفاسى وانتظرت .. مرت آباد
من الصمت ، ثم من جديد عادت القرعات
الحازمة .. عرفت أن وقت العمل قد حان ،
وهرعت إلى الباب الجنوبي الذى أزمعت اقتحامه .
ازداد الدق إلحاحًا وتمنيت أن يغطى صوت الاقتحام ..
ثم اندفعت نحو الباب بكتفى غير مبال بألم
أو صدمة ..

فى النهاية اتهار الباب لكن مع صوت تهشم
عال عرفت أنهم سمعوه حتمًا ..
وسرعان ما دلفت إلى الحجرة الجانبية وأحكمت
إغلاق الباب الخلفى .. ودفعت حوض غسيل خلفه ..

تاركًا خلفي للأبد فندق (جيلمان) بظلاله
وأصواته الرهيبة ..

هبطت على السقف المنحدر فى حذر ، ونظرت
فوقى لكنى لم أر أحدًا فى سواد النافذة .. فقط من
بعيد كنت أرى الأضواء تلتمع آتية من مبنى
(طريقة ديجون السرية) ومبنى الكنيسة الطائفية .
وتمنيت أن أهبط إلى الفناء سريعًا قبل أن يعم
الإنذار بهربى .. كان الارتفاع بسيطًا ، وهويت
لأسفل فوق أرض مغبرة امتلأت بالعلب الفارغة
والبراميل ..

كان المكان مفزعًا لكنى لم أكن رائق البال
لهذه الانطباعات .. حانت منى نظرة إلى ساعتى
فوجدتها الثانية صباحًا .. ومن باب مفتوح بعيد فى
فندق (جيلمان) الذى فررت منه حالاً ، خرج
حشد من الأشكال المرئية .. المصابيح تتمايل فى
الظلام ، وأصوات متحشجة مفزعة تتبادل
الصراخ بلغة ليست الإنجليزية حتمًا ..

الآن أعرف أن أكثر مهاجمي قد دخلوا الغرفة
التي كنت فيها . لكن ذعري لم يكن بسبب ضعف
دفاعاتى ، ولكن لأن أحدًا من مطاردى - برغم
اللهات والأئين والعواء من حين لآخر - لم ينطق
بكلمة واحدة يمكن تمييز حروفها ... هزعت إلى
النافذة ، وكنت أعرف أن مطاردى يعرفون الآن
أين أنا بالضبط ..

نظرت إلى السقف المنحدر تحتى ، فى ضوء
القمر ، وجدت أن الوثبة ستكون خطيرة بحق ،
بسبب المنحدر الفظيع الذى سأسقط فوقه .. هنا
وجدت أن ستائر كبيرة سميقة معلقة حول النافذة ،
وكانت فرصة طيبة لتفادى خطر الوثبة .. جذبت
الستائر بأعمدتها ، وربطت طرف الستارة فى قفل
النافذة ، ثم دليتها حتى السقف المنحدر تحتى ..
وانحدرت على سلم الحبال المرتجل هذا ،

وعند شارع (بيتس) مررت بشبحين يمشيان
الهوري ، ووصلت إلى مساحة خاوية لم أرها من
قبل .. لكنها بدت لي خطيرة لأن القمر سيلهو كما
يشتهى هناك .. لكنى لم أملك سوى عبورها فى جرأة
وثقة لأن البدائل الأخرى قد تكون أخطر .. السبيل
الأوحد أن أعبرها مقلداً مشية أهل (اينزماوث)
المتثاقلة ، وأثق فى أن واحداً من مطاردى ليس
هناك ..

لم يكن هناك أحد كما توقعت ، برغم أننى سمعت
نوفاً من الزئير يتزايد باتجاه ميدان المدينة .. كان
الشارع متسعاً جداً يقود إلى مساحة شاسعة أمام
الساحل ، وتمنيت ألا ينظر أحد إلى البحر فى هذا
الوقت بينما أعبره فى ضوء القمر ...

لم يعق شىء تقدمى ، ولم تبذ علامة معينة
على أن هناك من يراى الآن ..

كانوا يتحركون دون اتجاه معين ، وسرنى
أنهم لا يعرفون مكاتى ، لكن هذا لم يمنع
قشعريرة قوية اجتاحت عمودى الفقرى .. لم
أتبين وجوههم لكن مشيتهم العرجاء المخيفة
كانت بالتأكيد منفرة .. والأسوأ أننى تبينت أن
أحدهم يرتدى روبا غريباً ، ويلبس عمامة عالية
لها طراز لا تخطنه العين ..

أصابنى الذعر من أن يجدونى هنا ، وكانت
رائحة السمك لا تطاق ، حتى إننى تمنيت ألا
يعشى على ...

* * *

مشيت سريعاً وبخفة جوار البيوت الخربة ،
أشعث أعبر بعد تسلقى الشاق .. لم يبد منظرى
جديراً بالملاحظة ، وهكذا كانت لدى فرصة
لأبأس بها فى الفرار لو قابلت أى عابر سبيل ..

وبعيداً فى ضوء القمر رأيت الخط الأسود
الكئيب المميز لـ (شرع الشيطان) .. تذكرت كل
الأساطير التى نسجت حوله فى الأربع والثلاثين
ساعة الماضية ، وأساطير تصور هذه الصخرة
كجوابة إلى عوالم الرعب والشذوذ ..

ثم - دون إنذار - رأيت وهج الضوء المنقطع
فوق الصخرة النائية ، وكانت مؤكدة لا شك فيها ..
فتحرك خوف أعمى فى أعماقى .. خوف لم أخبره
من قبل ..

ولتزداد الأمور سوءاً التمعت أضواء من بيت
(جيلمان) عبر الشمال خلفى .. كانت مماثلة
لكنها مختلفة التزامن ، بما يعنى أنها ليست سوى
إشارات ضوئية للإجابة ..

سيطرت على رجفتى ، ومن جديد استعدت الشعور
بمدى انكشافى .. واستعدت مشيئى المتثاقلة ،
وإن أبقيت عيني على الصخرة الشيطانية الجاثمة

وسط البحر .. لم أتخيل معنى هذا الذى يحدث ،
ما لم يكن طقساً ما يمارسونه عند (شرع
الشيطان) ، أو أن مجموعة ما قد نزلت من
قارب عند تلكم الصخرة .

هنا فقط داهمنى أكثر الانطباعات إفزاعاً ..
الانطباع الذى دمر آخر بقايا سيطرتى على نفسى ،
وجعلنى أركض جنوباً أمام أبواب البيوت الخربة
الفاغرة ، والنوافذ الشاخصة لذلك الشارع
الكابوسى ..

ذلك أن نظرة إلى المسافة الخالية التى أضاءها
القمر ، ما بين الصخرة والمنارة جعلتني أعرف أنها
ليست خاوية .. كانت تعج بالحركة ، وبكائنات
تسبح نحو المدينة ، وحتى من هذه المسافة
القصية كنت أدرك أن شكل الرعوس والأذرع شاذ
منفر بما يفوق الإدراك ..

وعلى ضوء الكشاف أعدت دراسة الكروكي
الذى رسمه لى صبى البقالة ، لأعرف كيف أصل
إلى هذا الخط من هنا .. وبدأت الزحف فى الظلام ،
وعبرت شارع (لافاييت) الخالى ، شاعراً بالاختناق
بسبب تزايد الرائحة السمكية الكريهة ..

ومن بعيد رأيت ثلاثة من تلك الأشكال تقف
عند شارع (إبويتش) .. واضح أنهم يقطعون
على الطريق ، وكان أحدهم يرتدى معطفاً طويلاً
وعلى رأسه ما يشبه التاج الطويل يلتصق فى
ضوء القمر .. وكاتت مشيته مما أرسل القشعريرة
فى عروقى ، لأن ذلك المخلوق كان يتواثب فعلاً ..

بعدما انصرفوا ، واصلت مسيرتى .. كان
الجزء الأخطر هو عبور شارع (لافاييت) الخالى ،
الذى غمره ضوء القمر . هنا يمكن بسهولة أن
يرانى أحدهم .. وهكذا قررت أن أنحنى للأمام
وأمشى ذات المشية المتناقلة التى يمشونها ..

توقفت عن الركض قبل أن أنهى مربعاً
عمرانياً ، لأننى عن يمينى سمعت ما يشبه
صرخات بحث منظم .. كانت هناك خطوات وصوت
محرك يهدر عبر الشارع الرئيسى .. وفى ثانية
تبدلت كل خطى .. لو كان الجنوب مغلقاً فعلياً
العثور على طريقة أخرى للفرار من (إينزماوث) ..

إنهم لم يجدونى ولا يعرفون أين أنا ، لكنهم
ينفذون خطة عامة تقضى بقطع الطريق على ..
ومعنى هذا أن كل مخارج البلدة محاصرة .. على
إذن أن أبتعد عن الطرق ، لكن كيف أفعل هذا
والمدينة محاطة بالمستنقعات ؟ هنا فكرت فى خط
السكة الحديد العاطل الذى كسته الأعشاب .. إنه
شبه مستحيل ، وهذا سيبعده عن تفكير القوم ..
للأسف هو واضح تماماً ويمكن رؤيته من أى
موضع عال بالمدينة ، لكن بوسعى أن أزحف
دافئاً جسدى وسط الأعشاب العالية .. خطة واهية
لكنها الوحيدة وليس لى سواها ..

الآن صار البحر عن يميني ، ونظرت إليه
بطرف عيني ، فرأيت قارباً بمجداف مليئاً بأشياء
مغطاة بالمشمع .. وكان المجدفون - برغم بعد
المسافة - لهم صفة منفرة ما .. وفي البحر كان
عدد من السابحين ، بينما الضوء الأصفر الخافت
يتوهج فوق (شرع الشيطان) .. وهب نسيم
شفيق يبدد الرائحة الزفرة قليلاً ثم عادت من جديد
بصورة أكثر كثافة ..

رأيت من جديد مجموعة من هذه الكائنات عن
بعد ، وكان أحدهما يضع عمامة عالية ، فأدركت
أنني رأيتهم من قبل .. للحظة نظر في اتجاهي
فتصلبت وبدأت أمشي متثاقلاً أكثر .. لا أعرف
حتى اليوم إن كانوا قد رأوني أم لا ، فإن كانوا قد
فعلوا فلا بد أن استراتيجيتي قد خدعتهم .. لقد
واصلوا مسيرتهم في ضوء القمر محدثين
أصواتهم الكريهة ..

فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى
واصلت الركض كالثعالب ، بين عيون وأفواه
البيوت الخالية ..

خرج رجل من بين أحد المنازل فتصلبت .. لكني
أدركت أنه ثمل جداً مما لا يشكل خطراً عليّ ..
وهكذا وصلت إلى نهاية شارع (باتك) حيث
خرائب المستودعات العتيقة ..

الآن صار صوت تدفق المياه قادراً على حجب
صوت خطواتي .. ووصلت إلى محطة القطار
المهجورة الغارقة في الظلام ، فمشيت مسرعاً
قاصداً الوصول إلى القضبان عند خلفيتها ..

كانت القضبان صدئة لكنها سليمة ، وكان المشي
أو الركض فوقها عسيراً لكني حاولت ، واستغرقت
وقتاً لا بأس به .. ولمسافة لا بأس بها ظللت
أمشي ، ثم وصلت إلى نقطة تعبر فيها القضبان
جسراً على الهاوية وعلى ارتفاع مخيف .. كانت

حالة هذا الجسر هي ما سيحدد خطى .. لو كان
يتحملنى سأعبره ، ولو لم يكن فعلى أن أخطر
بالعودة إلى الشوارع إلى أن أعبّر الجسر فوق
الطريق السريع ..

كان الجسر العتيق يلتصق فى ضوء القمر ،
ووجدت أن الوصلات آمنة على الأقل لمسافة
بضعة أقدام .. أخرجت كشافى ومشيت ، وكدت
أهوى بسبب سحابة الوطاويط التى أحاطت بى ..

وعند منتصف المسافة كانت هناك ثغرة خفت
أن تعوقنى .. ثم فى النهاية جازفت بقفزة يائسة
نجحت لحسن الحظ ..

وشعرت بسرور حين رأيت ضوء القمر من
جديد بعد هذا الممر الرهيب .. هنا تبدأ القضبان
فى عبور منطقة ريفية تمتاز بانحدار راتحة
السلك المنفرة .. وقد راحت الأعشاب تعوقنى ،
والشجيرات تمزق ثيابى بقسوة ، لكننى كنت
سعيداً بوجودها لأنها توارينى عن الخطر ..



فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى واصلت الركض
كالثعلب ، بين عيون وأفواه البيوت الخالية ..

كانت المسافة هائلة ، ولم أتبين تفاصيل ،
لكنى لم أحب قط هذا المشهد .. هذا الشيء
المتموج .. كان يتلوى كثيراً جداً ويتلألأ فى
ضوء القمر الذى صار غريباً الآن .. ثمة شىء
كالصوت كذلك ، لكن الريح لا تساعدنى كثيراً
على تمييزه ..

وعبرت ذهنى تخمينات عديدة كلها غير سار ..
تذكرت ما قالوه عن كائنات (إينزماوث) التى
تعيش فى أنفاق قرب الساحل .. وتذكرت كل أولئك
الباحثين عنى .. لو عددت كل هؤلاء لوجدت أن
العدد الكلى يفوق بمراحل ما يمكن أن يوجد فى مدينة
مهجورة مثل (إينزماوث) .. من أين جاء كل
هؤلاء ؟ ربما من الأنفاق .. ومن أين جاء هذا
الطابور المتموج الطويل الذى أراه الآن ؟ أترأه من
هناك ؟ أم هو من سفينة أفرغت حمولتها عند ذلك
النوء الصخرى المقيت ؟ من هم ؟ لماذا هم هنا ؟

بدأت منطقة المستنقعات ، ثم وصلت لجزيرة
ذات أرض مرتفعة نسبياً .. وكانت الأشجار عالية
خاتقة ، ومن جديد سرنى هذا لأن طريق (راولى)
كان الآن قريباً جداً وبشكل خطر ، حسب ما رأيته
من نافذة الفندق ... لن يدوم هذا طويلاً لكن
على الآن أن ألترم أشد الحذر ..

على الأقل كنت أعرف الآن أن السكة الحديد
غير مراقبة ...

نظرت للوراء فلم أر من يقفون أثرى .. كانت
بيوت (إينزماوث) تتلألأ بجمال فى ضوء القمر ،
وفكرت كم كانت رائعة فى الماضى قبل أن يسقط
الظل فوق المدينة .. ثم توقفت عيني أمام مشهد
أقل جمالاً ..

كان ما رأيته أو حسبت أننى رأيته ، هو انطباع
مقلق بحركة متموجة جنوباً .. جعلنى هذا أستنتج أن
حشداً هائلاً يغادر المدينة عن طريق (إيزويتش) ..

ضايقتنى كذلك أن الرائحة السمكية التى نسيبتها
قد عادت تزداد قوة .. وثمة أصوات حلقيه تتعالى
من مكان ما ..

وهنا بدأ العفن والصوت يزدادان قوة .. وتوقفت
راجفاً شاعراً بامتتان لكونى بين الأشجار .. إن
هذه هى النقطة التى يدنو فيها طريق (راولى)
من السكة الحديدية أقصى دنو ، ثم يبتعد عنها
متجهاً نحو الغرب .. ثمة شىء قادم وعلى أن
أقبع هنا وأنتظر حتى يبتعد .. حمداً لله على أن هؤلاء
القوم لا يستعملون الكلاب فى البحث .. وعلى كل
حال ما كانت الكلاب لتستطيع بسبب الرائحة
القوية التى تفعم كل مكان ..

كنت أشعر بأمان حيث أنا ، برغم أننى أعرف
أن مطاردي سيعبرون القضيبين ، ربما على بعد
مائة ياردة منى .. لكنهم لن يرونى بينما سأراهم
أنا .. ما لم تحدث معجزة ما ...

كنت أرى المساحة الخالية فى ضوء القمر ، تلك
التي سيعبرون منها .. وتوجست خيفة من المظهر
الذى سيبدون به .. فى الغالب هم أسوأ أنماط
(إنزماوث) مظهراً .. شىء لا يحب المرء أن
يتذكره ..

ازدادت الرائحة وتعالى الأصوات ، وكلها
لا تحمل أدنى شبهة بالكلام الآدمى .. هل هذه
حقاً أصوات مطاردي ؟ هل هم حقاً لا يصحبون
كلاباً ؟

قررت ألا أرى ، وأن أغمض عيني حتى تخفت
الأصوات نحو الغرب ..

كان الحشد قريباً جداً الآن .. الهواء ملوث بهم ،
والأرض تهتز تقريباً من وقع أقدامهم .. كاد تنفسي
يتوقف وركزت إرادتى كلها فى أن أبقي عيني
مغلقتين .. ليس بوسعى الآن أن أقول إن كان

مارأيتَه حقيقةً مريعة أم هلوسة كابوس لا أكثر ..
فيما بعد ستؤكد الحكومة - بعد استجابتها
لمناشداتي - أن هذه حقيقة مفزعة ، لكن أليس
بوسع الهلوس أن تتكرر بفعل السحر المدوخ
لهذه المدينة العتيقة المسكونة ؟ إن لهذه الأماكن
خواصَّ قوية .. أليس ممكناً أن جرثومة جنون
معد تكمن في أعماق ذلك الظل فوق (اينزماوث) ؟
من بوسعه أن يتأكد من الحقيقة بعد سماع قصة
العجوز (زادوك ألن) ؟ إن رجال الحكومة لم
يجدوا الرجل قط ، وليست لديهم أية فكرة عما
حدث له .. فأين ينتهي الجنون وتبدأ الحقيقة ؟
هل من الممكن أن آخر مخاوفي لم تكن سوى
ضلالات ؟

لكن لا بد من أن أخبرك بما حسبتني رأيته في
تلك الليلة تحت القمر الأصفر الساخر .. بالطبع

كأنت نيتي في إبقاء عيني مغفقتين قد فشلت تماماً ..
كان لا بد أن تفشل .. إذ من يمكنه أن يريض
ضريراً بينما فيلق من الكائنات الصاخبة مجهولة
الأصل ، يمر على مسافة أقل من مائة ياردة منه ؟
كنت متأهباً للأسوأ وكان يجب أن أكون كذلك
بالنسبة لما رأيته من قبل .. لقد كان من يقتفون
أثرى غير طبيعيين .. أفلا أتوقع إذن زيادة في
عنصر اللاطبيعية هذا ؟ أن أرى أشكالاً لا أثر
فيها لما هو طبيعي على الإطلاق ؟

لم أفتح عيني حتى دنا الصخب الأجنس من نقطة
أمامي .. عرفت أن أكثرهم باد للعيان الآن وهم
يعبرون القضيبين .. لم أستطع أن أكبح نفسي
من رؤية المشهد الرهيب الذي سيريني إياه هذا
القمر الخبيث .. وكانت هذه هي النهاية لسلامي
العقلي واطمئناتي إلى فهم توازن الطبيعة ..

ما كان لشيء تخيلته .. ما كان لشيء فهمته
- لو أنني صدقت حكاية (زالوك) المجنونة حرفياً -
ما كان لهذا أن يقارن بالحقيقة الشنيعة الشيطانية
التي رأيتها .. أو التي حسبت أنني رأيتها ..

هل حقاً أنجب كوكبنا أشياء كهذه ؟ ما الذى
لا يوجد إلا فى الأساطير والخرافات حقاً ؟

لكننى رأيتهم بعينى يتواثبون ويزحفون وينقون
عبر المساحة الخاوية فى ضوء القمر .. كانوا
يرتدون تلك العمامات المصنوعة من ذلك المعدن الذى
لا أعرف له اسماً ، وبعضهم يرتدى المعاطف ..
ومن فى المقدمة يضع قبعة على الشيء المشوه
الذى يفترض أنه رأس ..

أحسب أن لونهاهم الغالب كان أخضر رمادياً برغم
أن بطونهم كانت بيضاء .. وكانوا زلقين يلمعون ،
إلا أن ظهورهم كانت قشرية .. بشكل ما كانت

أجسادهم توحى بالبشر بينما رعوسهم تذكرك
بالأسماك .. بعيون جاحظة لا ترمش أبداً .. وعلى
جانبي العنق كانت خياشيم تنبض ، وكانت أصابعهم
المخلبية مزودة بأغشية ، وكانوا يتواثبون أحياناً
على يدين وأحياناً على أربع ..

كانت أصواتهم نوعاً من النقيق والنباح
يعوضون بها ما تفقر إليه وجوههم من اتصالات ..
وبرغم كل هذا لم يبد منظرهم غريباً على ..
ألم أكن أذكر منظر العمامة فى (نيوباريبورت) ؟
إنهم الضفادع - الأسماك .. وقد فهمت الآن
سبب هلعى من ذلك الكاهن بالعمامة ، الذى
رأيته فى تلك الكنيسة السوداء ، وعرفت بم ذكرنى
منظره ..

وكان عددهم يفوق التخمين .. بدالى أن
هناك حشوداً بلا نهاية منهم .. والمشكلة

هى أننى لم أكن أرى سوى جزء بسيط من
جموعهم ..

وفى النهاية جاعنى الإغماء الرحيم .. وكان
هذا أول إغماء أعرفه فى حياتى ...

5

كان هذا هو مطر النهار الرهيف الذى أيقظنى
من نعاسى بين الشجيرات التى تغطى السكة
الحديدية .. وحين نهضت إلى الطريق لم أر أثراً
لآثار أقدام فى الوحل ..

لقد ولت كذلك الراحة السمكية . ومن بعيد كنت
أرى أسقف (إينزماوث) وخرائبها ، لكن
بلامخلوق حى واحد فى المستنقعات المحيطة بى ..

كانت ساعتى سليمة وقالت لى : إن الوقت نحو
الظهيرة .. كانت حقيقة ما مررت به غير أكيدة
فى ذهنى لكنى أدركت أن شيئاً مريباً ينتظر ، وأن
على الفرار سريعاً من (إينزماوث) ..

وبرغم الخوف والجوع والوهن والحيرة ؛

٩٧

٩٦

وجدت أنني قادر على المشى .. فبدأت أمشى عبر
الطريق الموحد ..

وعند المساء كنت فى قرية ، ألتهم وجبة
ساخنة وأرتدى ثياباً لائقة.. ركبت قطار المساء
إلى (آرخام) ، وفى اليوم التالى تحدثت جدياً
وطويلاً مع رجال الحكومة .. وهو شىء كررته
بعد هذا فى (بوستون) .. والناس الآن
تعرف ما حدث بالضبط .. وقد تمنيت - من أجل
سلامة الأمور - لو لم يكن لدى ما أضيفه إلى
القصة ..

ربما كان الجنون هو ما يملكنى .. وربما كان
الذعر العظيم .. أو ربما أعجوبة أعظم تمد يدها
لى ..

كما يمكن أن تتخيل ، تخليت عن أكثر أهداف
رحلتى .. العلم .. المعمار .. الأنتيكات التى اعتمدت

عليها كثيراً .. لكننى أثريت زيارتى لـ (آرخام)
عن طريق بعض دراسات النسب التى طالما تقنت
لعملها .. معلومات خام عجول حقاً ؛ لكنها تصلح
للاستفادة منها يوماً حين أجد الوقت لتسويقها ..

كان مستر (ب . لافام بيبودى) - وهو القيم
على الجمعية التاريخية هناك - حريصاً على
مساعدتى ، واهتم كثيراً جداً حين أخبرته أنني
حفيد (إليزا أورن) من (آرخام) التى ولدت
عام 1876 ، وتزوجت من (جيمس وليامسون)
من (أوهايو) وعمرها سبعة عشر عاماً ..

يبدو أن خالاً لى كان هنا منذ أعوام ، وأجرى
بحوثاً مماثلة لما أقوم به ، ويبدو أن أسرة جدتى
كانت موضع اهتمام محلى ما ..

قال مستر (بيبودى) إن مناقشات عديدة قد دارت
حول زواج أببها (بنيامين أورن) بعد الحرب

والأهلية .. إن سلالة العروس غير محددة بالضبط ،
بالرغم من أنه يقال إنها من آل (مارش) فى
(نيوهامبشاير) .. وهم يمتون بصلة لآل (مارش)
فى مقاطعة (إسكس) جنوبى إنجلترا . وقد تعلمت
العروس فى فرنسا فى بداية حياتها ، وقد ترك
لها وصى ما مبلغاً من المال لتغطية نفقاتها هى
ومربيته .. ثم اختفى فتولت المربية تربية الطفلة ..
وكانت المربية الفرنسية صموئلاً غامضة ..

ولقد عجز الجميع عن تحديد نسب أبوى الفتاة
بين أسر (نيوهامبشاير) .. بالواقع كانت لديها
عينا آل (مارش) المميزتان .. وقد توفيت فى سن
مبكرة بعد ما أنجبت جدتى .. طفلتها الوحيدة ..
ولما كان اسم (مارش) قد صار مرتبطاً فى ذهنى
بأشياء غير سارة ، فإتنى لم أحب كثيراً أن أجد اسم
(مارش) فى نسبى ، كما لم أحب أيضاً ما قال
الرجل من أننى أنا نفسى أحمل عيني (مارش) ..

وبرغم كل هذا دونت كل شىء بعناية ، وعدت
إلى (توليدو) من (بوستون) وأمضيت شهراً
فى (موسى) على سبيل الاستشفاء من آثار
المنحة .. وفى سبتمبر دخلت (أوبرلين) لأنهى
عامى الدراسى الأخير ، ومن وقتها حتى (يونيو)
انشغلت بالدراسة ، ولم يذكرنى بأحداث الصيف
إلا زيارات من موظفى الحكومة يستوثقون من
تفاصيل قصتى التى حكيتها ..

وفى يوليو أمضيت بعض الوقت مع أسرة
والدتى المرحومة فى (كليفلاند) ، وكنت أراجع
بعض معلوماتى الخاصة بالنسب .. وأحاول رسم
شجرة متماسكة .. فى الواقع لم أتم هذه المهمة
قط لأن جو دار (ويليامسون) كان يثير اكتئابى ..
وما كانت أمى ترحب بأن أزور والديها فى
طفولتى ، برغم أنها كانت تبرهما حقاً .. كنت
أجد جدتى المولودة فى (آرغام) مخيفة غريبة

ولا أحسبني حزنت حين اختفت .. كنت فى الثامنة
من عمرى وقتها ، وسمعت أنها جنت بسبب
انتحار عمى (دوجلاس) أكبر أبنائها .. وكان قد
فعلها بعد رحلة قام بها إلى (نيو إنجلند) ..

كان عمى يشبهها ، ولم أكن أحبه كذلك .. ثمة
شء مخيف فى عيونهم الثابتة التى لا تطرف ..

جعلتني مراجعة الصور والوصايا أشعر بذعر
بالغ .. كما قلت كانت جدتى وعمى (دوجلاس)
يزعجاني كثيرا ، والآن رحت أرمق صورهما
شاعرا باغتراب ونفور جمين .. لقد بدأ نوع رهيب
من المقارنة يفرض نفسه على لا وعيى برغم
رفض الوعى لهذا .. كان من الواضح أن تعبير
وجهى هذين يوحى بشيء لم أعرفه من قبل ..
شء سيثير هلعى لو أمعنت التفكير فيه ..

ازداد الهلع حين أرانى خالى مجوهرات الأسرة
المحفوظة فى مصرف المدينة .. كان هناك

صندوق غريب عتيق .. قال لى إنه يحوى
مجوهرات عجيبة الشكل لم يرتدها أحد أمام
الناس قط على حد علمه .. وبرغم أن جدتى
كانت تحب النظر إليها ، فإن سمعة النحاس التى
تلاحق هذه المجوهرات كانت قوية ..

وبدا خالى يفتح الصندوق ببطء واشمنزاز ،
ونصحنى ألا أصدم بالتصميم الشاذ المخيف لهذه
المجوهرات .. إن صانعى المجوهرات الذين رأوا
هذه لم يستطيعوا معرفة مم صنعت ، ولا من أية
ثقافة جاءت ..

كانت عمامة وسواران ، وهنا لم أستطع
التحكم فى ملامح وجهى وأنا أرمق هذه الأشياء ،
حتى إن خالى تصلب ليرى ما دهاتى .. كان
ما فعلته وقتها مثيرا لدهشته ، وأثار دهشتى
كذلك : لقد غبت عن الوعى بسهولة كما حدث
من قبل فوق السكة الحديدية ..

★ ★ ★

وفى خريف 1930 بدأت الأحلام .. كانت نادرة
فى البداية ، ثم ازدادت قوة مع الوقت .. مساحات
مائية شاسعة انفتحت أمامى .. كنت أسبح وسط
مياهات جدرانها من أعشاب البحر ، تصحبنى أسماك
غريبة الشكل .. ثم بدأت الأشكال الأخرى تظهر ..
تفعمنى برعب لا يسمى فى اللحظة التى أشتق فيها ..
لكننى فى الحلم كنت منهم .. ألبس ما يلبسون
وأسبح مثلهم ، وأردد عبارات بلغتهم فى معابدهم
المائية ..

وكان ما أذكره حين أصحو جديراً بأن يصمنى
بالجنون أو بالعبقرية لو جسرت على كتابته ..
وتدهورت حالتى الصحية والنفسية مع الوقت ،
حتى تركت وظيفتى وعشت حياة منعزلة ثابتة
لشخص لا نفع منه .. أصابنى مرض عصبى غريب
كذلك جعلنى فى أوقات بعينها عاجزاً عن إغماض
عينى .

ومن يومها غدت حياتى كابوساً من التوجس ..
ولم أعد أعرف أى جزء هو الحقيقة وأى جزء هو
الجنون .. كانت جدتى الكبيرة من نسل (مارش) ما ،
لا يعرف أحد أصلهم ، وكان زوجها من
(آرخام) .. ألم يقل (زادوك) العجوز : إن ابنة
(أوبد مارش) من شيطانة البحر قد تزوجت من رجل
ساذج من (آرخام) ؟ ألم يقل : « إن لك عينين
حادتين قارئتين كعيني (أوبد) » ؟ ألا يعنى هذا أن
(أوبد مارش) هو جدى الكبير ؟ فمن - أو ما -
تكون جدتى الكبيرة إذن !؟

ولربما كان الأمر جنوناً .. ربما كانت مغامرة
(إينزماوث) قد صبغت خيالاتى .. ولكن لماذا
قتل خالى نفسه بعد ما عرف شجرة نسبه فى
(نيو إنجلند) ؟

ولمدة عامين حاربت هذه الأفكار ونجحت
نجاحاً جزئياً .. وجد لى أبى عملاً فى شركة
تأمين ، فدفنت نفسى فى العمل قدر الإمكان ..

سكان الأعماق لا يموتون بسهولة .. هم الآن
يستريحون لكنهم سينهضون يوماً من أجل
ما يحلم به (كتولو) العظيم .. والمدينة القادمة
ستكون أكبر وأهم من (إينزماوث) .. إن على
كفارة مهمة لأننى جلبت رجال الموت الأرضيين إلى
(إينزماوث) ، لكنها لن تكون ثقيلة الوطء ..

وفى الصباح رأيت فى المرآة بوضوح أننى
اكتسبت سحنة (إينزماوث) ..

وكما فعل خالى ابتعت مسدساً وكدت أفعلها ..

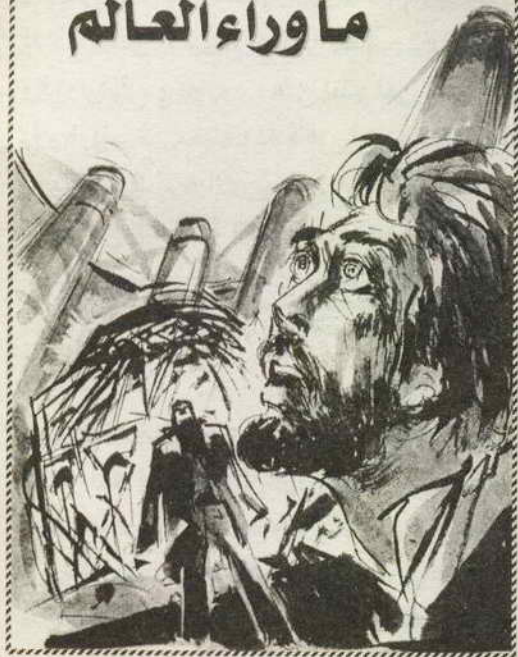
لكن أحلامى فى الأيام التالية صارت أكثر
جاذبية ، وصرت منجذباً للبحر ولا أهابه .. الآن
لا أحسب أن على الانتظار كما فعل من سبقونى ..
ولو انتظرت لحبسنى أبى فى مصحة عقلية للأبد .
إن الروائع تنتظرنى تحت المحيط ولن أنتظرها ..
لا رلياهل سيهويهل فلجاتجل دا لا .. لا .. لن

وهنا بدأت أدرس وجهى فى المرايا مذعوراً ..
لقد لاحظ أبى الشىء ذاته لأنه كان يتأملنى من
حين لآخر فى تأمل وتهيب ..

ماذا يحدث لى ؟ هل أنا فى الطريق لأن أشبه
جدى وجدتى ؟ ذات ليلة حلمت بأننى قابلت جدتى
تحت الماء .. كانت تعيش فى مكان فسفورى له
شرفات عديدة ، وحديقة من الشعاب المرجانية ..
رحبت بى بحرارة شبه ساخرة .. كانت قد تغيرت
تماماً ككل من يرحلون إلى البحر أخيراً .. قالت لى
إنها لم تمت لأن عمرها طويل جداً .. وأنا سألحق
بها .. سأعيش مع هؤلاء الذين عاشوا قبل أن
تطأ قدم إنسان الأرض ..

قابلت جدتها كذلك .. منذ ثمانين ألف عام كانت
(بتهتياليا) تعيش فى (يها نتلى) .. لم تمت
حين أطلق الأرضيون الموت على البحر .. إن

ما وراء العالم



أطلق الرصاص على رأسى .. لن أفعل أبداً سأذهب
إلى (إينزماوث) التى يغطيها الظل .. الظل
الساحر ..

سأسبح حتى (شرع الشيطان) وأغرس عبر
الأعماق المظلمة حتى أصل إلى (يها نتلى) ، وهناك
فى جحر سكان الأعماق سأعيش وسط المجد
والروعة للأبد .

1936

مخيف بما يفوق التصور ذلك التغيير الذى
طراً على صديقى العزيز (كروفورد تلتجاست) .
ولم أكن قد رأيتَه منذ شهرين ونصف الشهر قبل
ذلك ، حين أخبرنى بهدف أبحاثه الفيزيائية
والخوارقية ، وحين رد على احتجاجى المذعور
بأن طردنى من معمله وداره فى غضب مجنون .
وكنت أعرف أنه الآن يمضى الوقت فى معمله
بالعلية مع تلك الآلة الكهربائية المقيتة ، يأكل أقل
القليل ، ويمنع دخول حتى الخدم . كنت أعرف
هذا لكنى لم أتوقع كل هذا التبدل خلال عشرة
أسابيع .

ليس مما يسر أن ترى رجلاً متين البنيان وقد
صار ناحلاً ، والأسوأ أن ترى جلده المتهدل وقد
صار أصفر أو بنيًا ، والعينين غائرتين تلتنعان ،
وأوردة الجبين مجمدة بارزة واليدين ترتجفان .
ولو أضفت لهذا شيئاً أقول إنه ذلك المظهر العام

غير المهندم ، وشعر بدأ يشيب عند الجذور ،
ولحية غير حليقة . كان هذا هو منظر (كروفورد
تلتجاست) فى تلك الليلة التى جلبتتى فيها
رسالته المضطربة إلى بابهِ بعد ما طردنى من
هناك .. كان هذا هو الشبح الذى راح يرتجف
وهو يقودنى للدخل ، وشمعة فى يده وهو ينظر
من حين لآخر من فوق كتفه ، كأنما يخشى أشياء
لا ترى فى المنزل .

كان من الخطأ أساساً أن يدرس (كروفورد
تلتجاست) العلم والفلسفة ، فهى أشياء المفترض
أن تترك للباحثين الباردين قليلى الانفعال ، أما
بالنسبة للرجل ذى الأحاسيس المرهفة ، فهى
أشياء تسبب نتيجتين مأساويتين : إما القنوط لو
فشل فى أبحاثه ، أو الأهوال التى لا يصدقها عقل
لو نجح . وقد كان (تلتجاست) من قبل فريسة
الفشل والإحباط ، لكنى أعلم الآن والمخاوف

تغمرنى أنه فريسة النجاح . لقد أذرته من مغبة
تجاربه منذ عشرة أسابيع ، حين أخبرنى بما
شعر بأنه مقبل على اكتشافه . كان يتحدث فى
حماسة بصوت عال غير معتاد قائلاً :

- « ما الذى نعرفه عن العالم والكون من
حولنا ؟ إن سبلنا للمعرفة قليلة بشكل مروع ،
وإنطباعاتنا عن الأشياء المحيطة ضيقة بما
لا يقاس .. إننا نرى الأشياء بالطريقة التى يفترض
منا أن نراها بها ، وليست لدينا فكرة عن طبيعتها
المطلقة . بخمس حواس واهنة نحسب أننا
قادرون على استكشاف الكون المعقد غير
المحدود . على حين تستطيع كائنات أخرى لها
حواس أقوى أو تختلف عن حواسنا أن ترى
عالمًا غير متناه من الطاقة والحياة ، تلك الأشياء
التي توجد على بعد ياردات منا لكننا لا نقدر على
رؤيتها بحواسنا .. إن لدى يقينًا كاملاً أن عوالم

كهذه موجودة .. والآن بلا مزاح أقول : إننى
أستطيع أن أهشم هذه الحواجز .. بعد أربع
وعشرين ساعة ستعمل هذه الآلة ، وسوف توظف
موجاتها عضو إحساس مجهولاً يكمن فينا كبقايا
تشريحية لا نعرف وظيفتها .. لسوف نرى
ما يجعل الكلب ينبح فى الظلام ، وما الذى يجعل
القطط تحك آذانها بعد منتصف الليل .. لسوف
نبصر هذه الأشياء وأشياء أخرى لم يرها مخلوق
يتنفس من قبل .. سنخترق الزمن والأبعاد وندنو
من السر .. »

حين قال (تلتنجاست) هذا احتججت ، لأننى
أعرفه بما يكفي كى يجعلنى مذعوراً لا مستمتعاً ،
لكنه كان مجنوناً وطردينى من داره كما قلت ..
الآن هو ليس أقل جنوناً لكن رغبته فى قدومى قد
تغلبت على استيائه ..

وإذ دخلت دار الصديق الذى تبدل فجأة إلى

غول يرتجف ، أصابتنى عدوى الذعر الذى كان يتوارى فى الظلال . إن ما قاله منذ عشرة أسابيع بدا لى الآن مجسداً فى تلك الدائرة المظلمة خارج ضوء الشمعة وتمنيت لو كان الخدم دانين ، ولم أحب ما قاله حين ذكر أنهم رحلوا جميعاً منذ ثلاثة أيام .. بدا لى غريباً أن يرحل (جريجورى) العجوز دون أن يخبر صديقاً موثقاً به مثلى .. لقد كان هو من زودنى بأخبار (تلتجاست) بعد ما رحلت مطروداً من داره .

كنت أحاول تخمين ما يريده منى (تلتجاست) ، وإن كنت واثقاً من أن لديه سراً رهيباً . وعبر خواء المنزل المظلم تبعث الشمعة المتراقصة فى يد الرجل المرتجفة . بدا أن التيار الكهربى مقطوع ؛ وحين سألته عن ذلك قال : إن هذا لسبب محدد . وأضاف مغمغماً :

- « سيكون هذا أكثر من اللازم .. وهو شىء

لا أجرؤ عليه »

دخل معمله فى العلية ، وكانت الآلة الكريهة هناك تلتمع ببريق بنفسجى مشنوم . كانت متصلة ببطارية قوية لكن بدا أنها لا تتلقى أية كهرباء ، لأنى أذكر أنها كانت تهدر فى أثناء العمل فيما سبق . وقال لى (تلتجاست) إن هذا البريق ليس كهربى المصدر كما أتخيل .

أجلستنى قرب الآلة حتى صارت عن يمينى ، وحرك محولاً ما تحت الصمامات الزجاجية ، فبدأ الصخب المعتاد واستحال عواءً ثم انتهى إلى طنين ناعم يوحي بالعودة إلى الصمت .. فى الوقت ذاته ازداد التآلق ثم استحال خليطاً من الألوان لا أقدر على وصفه ..

كان (تلتجاست) يراقبنى ولاحظ دهشتى ،

فهمس :

- « هل تعلم ما هذا ؟ إنه الأشعة فوق

البنفسجية .. كنت تحسبها لا تُرى .. وهى كذلك
فعلًا لكنك تستطيع الآن أن تراها وأشياء خفية
أخرى ..

« أصغ إلى .. إن الموجات المنبثقة من هذا
الشيء توقف آلاف الحواس الغافية فينا .. حواس
ورثناها من عهد الإلكترونات المستقلة حتى وصلنا
إلى عهد الكائن العضوى المتكامل .. لقد رأيت
الحقيقة وإنى أزمع أن أريك إياها .. ألا تتساءل
كيف تبدو ؟ »

وهنا أطفأ الشمعة وجلس أمامى وأردف :

- « إن حواسك الموجودة - وأولها الأذن - ستلتقط
أول الانطباعات لأن السمع أقرب الحواس إلى الأعضاء
النائمة ، ثم تأتى الحواس الأخرى .. هل سمعت
عن الجسم الصنوبرى ؟ إننى لأسخر من أطباء
الغدد الصماء الضحكين ومن علماء النفس الجهلة ..
إن هذه الغدة لهى أهم عضو حسى فى الجسد ..

لقد اكتشفت هذا .. وبوساطتها ترى ما وراء هذا
العالم .. »

نظرت حولى لأرى الغرفة قد أضاءتها إشعاعات
لا تراها عيوننا عادة ، واتخذ المكان كله وهما
ضبابياً أخفى طبيعته ، وترك الباب مفتوحاً
للخيالات والترميز . وإذ صمت (تلتجاست) رأيت
نفسى فى معبد واسع مذهل .. صرح غامض من
الحجر الأسود يرتفع شامخاً فوق أرضية من البلاط
المبتل إلى ما بين السحب بعيداً عن حدود بصرى ..
كانت الصورة جلية تماماً لفترة ، ثم أفسحت
الطريق لرؤيا أكثر رهبة .. لخواء شاسع فى
اللانهاية ولا شيء سواه .. وإنتابنى فزع طفولى
جعلنى أسحب المسدس من جيبى ..

ثم من أقصى أطراف البعد ولد الصوت بنعومة ..
كان خافتاً بما لا يقاس ، فيه نغمة موسيقية

عسير أن تخطنها ، لكن كان فيه توحش قاهر
جعل تأثيره كأنه تعذيب رقيق لجسدى .. وشعرت
بأحاسيس كالتي يحسها المرء حين يخدش الزجاج
المصنفر ..

وأدركت أن الصوت والريح يتزايدان ، وشعرت
كأننى مربوط إلى القضيب أمام قطار عملاق يدنو
منى .. بدأت أتكلم مع (تلتجاست) وإذا فعلت هذا
راحت الصور التى رأيتها تتلاشى ..

كان (تلتجاست) يحدق فى نفور فى المسدس
الذى أخرجه بلا وعى ، لكنى أدركت من ملامح
وجهه أنه رأى قدر ما رأيت بل ربما أكثر ..

حذرنى قائلاً :

- « لا تتحرك .. إذ إننا فى هذه الأشعة نرى
ونرى .. لقد أخبرتك أن الخدم رحلوا لكنى لم أقل
السبب .. إنها مدبرة المنزل الغبية تلك .. لقد

أضاعت الأنوار فى الطابق السفلى وكنت قد
أندرتها ألا تفعل .. والتقطت الأسلاك نذبذة معينة
لا بد أنها كانت مفزعة .. وسمعت صراخها برغم
كل ما كنت أراه هنا وأسمعه .. ثم وجدت ثيابها
المبعثرة فيما بعد .. لقد كانت ثياب مسز (أباديك)
جوار مفتاح نور الصالة وهكذا عرفت ما فعلته ..
لقد ظفر بهم جميعاً .. لكن طالما نحن لا نتحرك
فإننا آمنان نوعاً .. تذكر أننا نتعامل مع عالم
مفزع نحن فيه عاجزان تماماً .. ابق ثابتاً ! »

شعرت بما يشبه الشلل ، وانفتح عقلى ثانية
لاستقبال ما أسماه (تلتجاست) ب (ما وراء العالم) ..
كنت الآن فى دوامة من الأصوات والأضواء لكن
حدود الغرفة مازالت موجودة ، وراحت سحب
تغلى تخترق السقف وتحتشد أمامى .. كنت أرى
المعبد من جديد لكن أعمدته كانت تمتد إلى محيط
سماوى من الضوء .. ثم تلون المشهد وشعرت

وسط غمرة الأضواء والأصوات أنسى أذوب أو
أفقد الشكل الصلب ..

ولسوف أذكر بالذات ما بدا كليل غريب تملؤه
كريات مضيئة دوراة ، ثم أدركت أن الشمس
البراقة تتخذ شكل الوجه المشوه - (تلتجاست) ،
وللحظات أخرى كنت أرى أجساماً عملاقة تصطدم
بى لتعبر ما كان جسدى الصلب ..

وفجأة استحوذ على مشهد من الفوضى العامة
التي برغم غموضها كانت تملك عناصر المنطقية
والثبات .. وقد بدا لى المشهد مألوفاً لأنه كان
منطبعاً على الخلفية الأرضية المعتادة ، كما تسقط
صور السينما على ستار العرض .. لم يكن هناك
موضع واحد خال فى المعمل ما بين الآلة ووجه
(تلتجاست) والجدران ..

كنت أرى عالماً كاملاً حياً من الغرياء والكائنات

العجيبة ، وبدا لى كأن الأشياء المعروفة دخلت فى
تكوين الأشياء غير المعروفة والعكس .. ومن بين
الأشياء الأخيرة كان هناك أكثرها عددًا كائنات
شبيهة بقتاديل البحر ، تسبح بلا كلل ، وتهتز مع
اهتزازات الآلة .. وكانت تجتاز الأجسام الصلبة
وتخترق بعضها البعض .. وأحياناً كان يلتهم
بعضها البعض ، ولم أستطع أن أبعد تفكيرى عن
الخدم البؤساء الذين ربما اختفوا بطريقة كهذه ..

وسمعت (تلتجاست) يقول :

- « هل تراها ؟ هل ترى الأشياء التى تكون
ما يسميه الناس بالهواء النقى والسماء الزرقاء ؟
ألم أحطم الحاجز ؟ ألم أرك العالم الذى لم يره
إنسان قط من قبل ؟ »

كان وجهه دانياً من وجهى ، وعيناه حفرتى
نار ، وفيهما ما تبينت الآن أنه مقت غالب ..

- « هل تحسب هذه الأشياء المتخبطة هي ما التهم الخدم ؟ أحمق ! إنها كانت بلا خطر .. لكن الخدم قد رحلوا ، أليس كذلك ؟ لقد حاولت أن تمنعني .. أحبطتني حين كنت أريد كل قطرة تشجيع ممكنة .. كنت خائفاً من الحقيقة الكونية يا جبان .. والآن ظفرت بك ! ما الذى قضى على الخدم ؟ ما الذى جعلهم يصرخون كل هذا الصراخ ؟ لسوف تعرف حالاً .. فقط انظر لى .. هل تحسب أن للزمن والقيمة معنى ؟ هل تحسب أن هناك ما يدعى بالشكل والمادة ؟ لقد اخترقت أنا ورأيت حدود اللانهاية واسبعدت الظلال التى تعبر من عالم إلى آخر لتبذر الموت والعدم .. إن الفضاء ملكى أنا .. هل تسمعى ؟ ثمة أشياء تلاحقتى .. أشياء تلتهم وتذيب .. لكننى أعرف كيف أتفادها .. كيف أجعلها تظفر بك كما ظفرت بالخدم .. هل تتحرك يا سيدي العزيز ؟ قلت لك

إنه من الخطر أن تتحرك .. لقد حافظت على حياتك حتى الآن بأن أمرتك ألا تتحرك .. ولو أنك فعلت لظفروا بك من زمن طويل .. لا تقلق .. هذا لا يؤلم ، وإنما صرخ الخدم بسبب الذعر مما رأوه .. إن تلك الكائنات المدللة تأتي من عالم لا تسرى فيه مقاييسنا الجمالية .. كنت أعرف دوماً أنك لست بالعالم يا صديقى .. لا تقلق .. إنهم آتون .. انظر ! انظر ! إنه فوق كتفك الأيسر .. »

وما بقى فى القصة مختصر جداً ، وربما هو مألوف لمن قرءوا الصحف . لقد سمع رجال الشرطة طلاقة رصاص من منزل (تلتجاست) العجوز ووجدونا هناك .. (تلتجاست) ميت وأنا فاقد الرشد . وقد اعتقلونى لأن المسدس كان فى يدي لكنهم أطلقوا سراحي بعد ثلاث ساعات بعدما

وجدوا أن نرف المخ هو ما قتل (تلتنجاست) ،
وعرفوا أن طلقى كانت موجهة للآلة المؤنية
اللى تناثرت أجزاءها الآن على أرض المعمل ..

لم أقل لهم كل ما رأيت ، لكن الطبيب الشرعى
بعد ما عرف بعض التلميحاح العامة ، قال إننى
بالتأكيد كنت تحت تأثير تنويم مغناطيسى مارسه
معى المجنون الحاقد ..

ليتنى أستطيع تصديق الطبيب .. إذن لساعد
هذا أعصابى المرتجفة بسبب ما صرت أعتقد أنه
الهواء والسماء من فوقى ..

لم أعد أستطيع التمتع بالوحدة أو بالراحة ،
ودائمًا ما يطاردنى ذلك الشعور بالمطاردة
والمراقبة كلما كنت متعبًا .. على أن السبب
الوحيد الذى يمنعنى من طلب عون الطبيب هو

حقيقة أن رجال الشرطة لم يجدوا قط أجساد الخدم
الذين يعتقدون أن (كروفورد تلتنجاست) قد قتلهم .

كتبت عام 1920 ونشرت
للمرة الأولى عام 1934

الاستنتاج المريع الذى بدأ يفرض نفسه على
عقلى الحائر الكاره له ، قد صار الآن حقيقة
مرعبة ..

لقد ضللت طريقى فى المتاهة الواسعة كهف
(الماموث) .

لا شىء يقع عليه بصرى المجهد فى أى اتجاه ،
كى أستعين به علامة للخروج من هنا .. إننى لن
أرى من جديد ضوء النهار المبارك ، ولا وديان
العالم الجميلة بالخارج .

لم يعد عقلى يملك ترف أدنى شك .. لقد ولى
الأمل ، وبرغم أننى تعلمت الفلسفة طيلة حياتى ،
فإننى لم أنل أية ترضية من سلوكى العقلانى
المتجرد . لأننى برغم أنسى قرأت كثيراً عن
الجنون الذى قذف إليه الكثيرون ممن مروا بهذا
الموقف اليائس ؛ فإننى لم أخبر شيئاً من هذا ..
ووقفت هادناً ما إن تبينت المأزق الذى وقعت فيه ..

الوحش فى الكهف



ظلمات باطن الأرض الكلية التى نؤشك أن تكون
ملموسة .. وإذ وقفت فى الضوء المحتضر المهتر ،
تساءلت فى غباء عن الظروف التى سببت نهايتى
القادمة ..

تذكرت القصص التى سمعتها عن مستعمرة
مرضى السبل التى اتخذت سكناها فى هذا الكهف
العملاق ، طلباً للصحة فى هواء عالم ما تحت
الأرض .. بحرارته الثابتة المنتظمة ، وهوائه
النقى ، وهدوئه .. وكيف لاقى القوم الموت
بأغرب السبل وأشنعها ..

لقد رأيت البقايا المؤسفة لأكواخهم غير متقنة
الصنع إذ مررت بها مع المجموعة .. وتساءلت
عن الأثر غير السوى الذى تحدثه الإقامة فى هذا
الكهف الهائل الصموت فى شخص طبيعى مثلى ..
والآن أقول لنفسى : إن فرصتى للتحقق من هذه
النقطة قد جاءت ، بشرط ألا يؤدى الجوع إلى
رحيلى العاجل من هذا العالم ..

ولا حتى فكرة أننى ابتعدت كثيراً عن مجال أى
بحث عادى عنى ، جعلتني أتخلى عن رباطة
جأشى ولو للحظة ..

لو كنت ساموت ، فهناك هذا الكهف المخيف
لكنه ساحر ، كأنه ضريح كالذى يمنحه لى أى
فناء كنيسة .. وكان فى هذا التصور راحة أكثر
من راحة اليأس ..

إن التصور جوعاً سيكون هو مصيرى النهائى ..
كنت من هذا واثقاً .. البعض جن من نهاية كهذه
لكنى شعرت بأن هذه ليست نهايتى ..

إن كارثتى ليست خطأ أحد سواى ، لأن الدليل لم
يعرف أننى انفصلت عن مجموعة الساتحين ،
ومشيت بلا هدف نحو ساعة فى دروب محرمة من
الكهف .. وعجزت عن متابعة الممرات الخادعة
التي عبرتها منذ فارقت من كانوا معى ..

لقد بدأ مصباحى يخبو ، ولسوف تغلفنى سريعاً

وإذ ولت آخر الإشعاعات من مصباحى إلى
الظلمة ، قررت ألا أترك باباً لا أطرقة .. ولا وسيلة
للنجاة دون أن أجربها .. ومستعيناً بكل قوة فى
رئتى ، أطلقت سلسلة من الصرخات العالية ، على
أمل أن أجذب انتباه الدليل بصخبى .. إلا أننى
- وأنا أصرخ - كنت موقناً من أن صرخاتى
بلا جدوى ، وأن صوتى الذى تعكسه الجدران
الحجرية حولى ، لن يصل إلى أذنين عدا أذنى ..

فجأة تركز اهتمامى إذ تخيلت أننى سمعت
صوت خطوات ناعمة على أرض الكهف الصخرية ..
أتكون نجاتى تحققت بهذه السرعة ؟ هل تكون كل
مخاوفى بلا داع ، ويكون الدليل قد لاحظ اختفائى
من بين المجموعة ، ففتبعنى وبحث عنى فى
مناهة الحجر الجبرى هذه ؟

وبينما تلكم الخواطر السارة فى ذهنى ، كنت
على وشك مواصلة الصراخ ثانية حتى يجردونى

أسرع ، حين استحال سرورى ذعراً فجأة وأنا
أصغى ..

لأن أذى الحادة أبداً - والتى شحذها الصمت
التام فى الكهف - جعلتنى أميز فى رعب وغير
توقع ، أن هذه الخطى ليست كخطى أى إنسان
فان ..

وسط السكون الغريب لهذه البقعة تحت
الأرضية ، فإن وقع قدمى الدليل بحذائه ذى
الرقبة كان سيحدث ضربات قوية حادة .. أما هذه
الضربات فناعمة مختلصة كقدم مخلبية لقط ..
بالإضافة لهذا - إذ أصغيت بعناية - بدا لى أننى
أميز خطوات أربع أقدام لا اثنتين .

كنت واثقاً الآن أننى بصرخاتى قد جذبت وحشاً
مفترساً ما .. ربما أسد جبال دخل الكهف صدفة ..
ولربما اختار الله (العلى القدير) لى ميتة

أسرع وأرحم من الجوع .. إلا أن غريزة البقاء
- التي لا تنام تمامًا أبدًا - تحركت في صدري ،
وبرغم أن الفرار من الخطر القادم قد يدخرنى
لنهاية أبطأ وأقسى ، إلا أنني صممت على الذود
عن حياتى بأعلى ثمن لدى ..

لزممت الصمت على أمل أن الوحش القادم
سيفقد اتجاهى فى غياب الصوت ، ويمر بى ..
لكن ما كان هذا الأمل ليتحقق .. لأن الخطوات
الغريبة واصلت التقدم .. لا بد أن الحيوان شم
رائحتى التى - فى جو خال من كل التأثيرات كما
فى هذا الكهف - يمكن تتبعها لمسافات هائلة ..

وإذ أدركت أنني يجب أن أتسلح للدفاع أمام
تلك الهجمة غير المرئية فى الظلام ، جمعت كل
ما وجدت من صخور متناثرة على أرضية الكهف ،
وأمسكت بواحدة فى كل يد لاستعمالها العاجل ..
وانتظرت ما سيحدث ..

فى الوقت ذاته استمرت ضوضاء المخالب
القادمة .. من المؤكد أن سلوك هذا الوحش
غريب .. أكثر الوقت كانت الخطى توحى بحيوان
يمشى على أربع ، بلا اتساق بين الطرفين الأماميين
والخلفيين .. وفى لحظات أخرى قصيرة كنت أشعر
أنه يمشى على قدمين .. تساءلت عن نوع هذا
الحيوان .. لا بد أنه حيوان عاثر الحظ دفع ثمن
فضوله ورغبته فى استكشاف الكهف غالبًا ..

لا بد أنه يلتهم الوطاويط والفئران ، وربما
أسماك نهر (جرين) التى تدخل الكهف مع
السيول ، وتتصل بمياهه بشكل غامض ..

وتذكرت ما تحكيه الأساطير المحلية عن
التحولات المريعة التى طرأت لمرضى السل ، بعد
الفترة الطويلة التى قضوها فى ظلام الكهف ..

وتذكرت - مبهوتًا - أنني وإن تغلبت على مهاجمى

فلن أعرف أبداً كيف يبدو ، لأن مصباحى قد انتهى ،
وليست معى أعواد ثقاب ..

كان الضغط فى مخى مريعاً الآن ، وراح
خيالى المريض يربنى أشكالاً مفزعة فى الظلام
المحيط بى .. أقرب أقرب تدنو الخطوات ..
أشعر أن على أن أصرخ لكننى حتى لو نويت هذا
فما كان صوتى ليستجيب .. كنت متجمداً حيث أنا ..
وتساءلت عما إذا كانت ذراعى اليمنى قادرة على
إطلاق قذيفتها ، لو جاءت اللحظة ..

الآن صارت الخطى دانية جداً .. يمكننى سماع
التنفس الثقيل للحيوان وأدركت أنه بالتأكيد آت من
قريب .. وكنت منهكاً .. اندفعت يدي اليمنى مهتدية
بحاسة سمعى الموثوق فيها ، لتقذف قطعة الحجر
الجبرى نحو نقطة الظلام التى جاءت منها الخطوات
والأنفاس .. ولا بد أنها كانت تحقق هدفها لأن الشئ
وثب مبتعداً كما سمعت ، ووقف على مسافة صامتاً ..

هنا أطلقت قذيفتى الثانية بنجاح أكبر ، لأن الوحش
فى هذه المرة تكوم أرضاً بلا حراك .. وجعلتنى
الراحة أزداد قوة فتراجعت للوراء نحو الجدار ..

استمر التنفس .. فى شهيق وزفير ثقيلين
كأنهما الاحتضار .. فبينت هنا أننى لم أفعل أكثر
من أن جرحت المخلوق . وزالت كل رغبة لادى فى
فحص الشئ .. انتصر على خوف غير مبرر أقرب
إلى التطير ، فلم أدن من الجسد ولم أقذفه بالحجارة
لأقضى عليه .. بدلاً من هذا جريت بأقصى سرعة
فى الاتجاه الذى تخيلت أننى جئت منه ..

فجأة سمعت صوتاً أو بالأحرى مجموعة من
الأصوات .. فى النهاية تحولت إلى سلسلة من
القرقعات المعدنية الحادة ..

هذه المرة لاشك هنالك ..

إنه الدليل ..

وعندها ولولت .. استعنت .. بل صرخت فرحاً
وأنا أرى بين الأقواس فوقى ، ذلك التائق الخافت
الذى هو من مصباح يقترب . جريت لألقى الضياء
وقبل أن أفهم ما حدث ، كنت راقداً على الأرض
بين قدمى الدليل .. أحتضن حذاءيه وأهذى
بالكلمات ، وبطريقة حمقاء بلا معنى - برغم تحفظى
الشديد - أحكى له قصتى الرهيبة ، وأرهقه بعبارات
الامتنان ..

فى النهاية استعدت شيئاً قريباً من وعى
الطبيعى .. لقد لاحظ الدليل غيابه حين وصل
الجمع إلى مدخل الكهف . وقد راح يفتش عنى
مهتدياً بحاسة اتجاهه الخاصة ، بادئاً من آخر
مكان تكلمت معه فيه ، وقد وجد أثرى بعد أربع
ساعات كاملة ..
وكنت قد اطمأنت لصحبته وكشافه ، فحكيت

له عن الوحش الذى قابلته من قليل ، واقترحت
عليه أن نعود فقط لنتحقق من الأمر ونعرف أى
نوع من الوحوش كان ..

وهكذا عدنا إلى حيث كان الصراع .. لمحنا
جسماً أبيض على الأرض .. جسماً أكثر بياضاً
من الحجر الجبرى ذاته .. بحذر تقدمنا شاعرين
بدهشة مشتركة ، لأن هذا الشيء كان أغرب
مارأينا من وحوش غير عادية فى حياتنا .. بدا
كقرود ضخمة الجسد شبيهة بالإسان ، هارب فى
الغالب من حديقة حيوان مجاورة ..

كان شعره فى بياض الثلج .. ربما كان هذا
نتيجة التأثير المبيض للظلام داخل الكهف ..
لكن الشعر لم يكن وافراً إلا فوق الرأس ، حيث
امتد ليغطى الكتفين ، بينما لم يكن له أثر على
باقى الجسد ..

راحت المخالب تتشنج والأطراف تتقلص .. ثم
بهزة دار الجسد بحيث صار الوجه فى اتجاهنا ..
فى البداية أصابنى الهلع من العينين حتى إننى
لم أر غيرهما .. كانتا سوداوين .. حالكتى السواد
تتناقضان بشدة مع الشعر والجلد الأبيضين ..
وكانتا غائرتين فى محجريهما ككل من يسكن
الكهوف .. وإذ دقت النظر لاحظت أنهما فى وجه
لم يبرز فكاه كما هو معتاد فى القرده .. وكان
الأنف أقل تميزاً ..

انفتحت الشفتان الغليظتان وخرجت أصوات
مضطربة ، ثم غاب الوحش فى الموت ..
أمسك الدليل بكمى وارتجف حتى إن الضوء
تراقص متشنجاً ، ملقياً ظلالاً غريبة على
الجران ..

لم أتحرك وظللت واقفاً ، بينما عيناى المذعورتان
متصلبتان على الأرض .. لقد ولى الخوف ، وحل

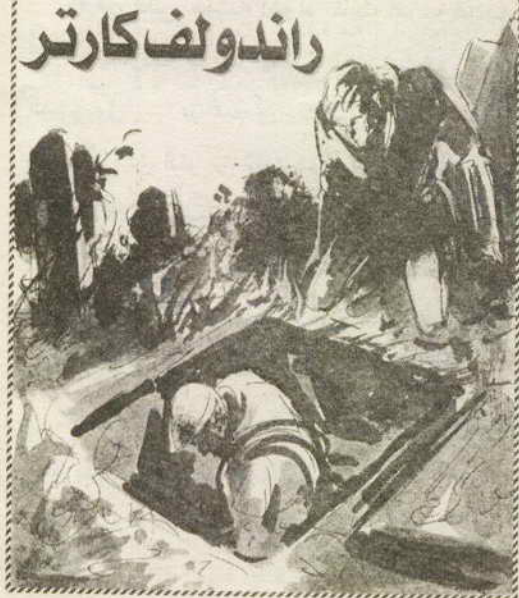
كان الوجه بعيداً عنا لأن الوحش سقط فوقه ..
ومن أطراف الأصابع كانت هناك مخالب طويلة ،
واللون الأبيض غير الأرضى يغمر كل شيء ..
لم يكن هناك ذيل ، وكان التنفس واهناً
الآن فأخرج الدليل مسدسه عازماً على قتل
المخلوق حالاً ..

هنا صدر صوت من المخلوق جعل السلاح
يسقط على الأرض ..

كان الصوت ذا طبيعة لايسهل وصفها .. لم
يكن كصوت أى من أنواع القرده المعروفة ،
وتساءلت عما إذا كان هذا الصوت الغريب مكتسباً
بسبب الصمت الطويل فى هذا الكهف ؟ إننى
أستطيع أن أصنف الصوت كنوع من الغمغمة
العميقة ..

وفجأة دبت طاقة عجيبة فى جسد الوحش ..

وصية راندولف كارتر



العجب والشفقة والرهيبة مكانه .. لأن الأصوات
التي أصدرها المخلوق الممدد فوق الحجر الجيري ،
قد أخبرتنا بحقيقته ..

إن المخلوق الذي قتلته .. ذلك الوحش العجيب
في الكهف الغامض .. هو - أو قد كان كذلك -
إنسان !!

« للمرة الثانية أقول إننى لا أعرف ما صار
إليه أمر (هارلى وارن) ، برغم أننى أحسب
أو أمل أنه نال المغفرة عما فعل ..

حقيقى أننى لخمسة أعوام كنت أقرب صديق
له ، وشاركته جزئياً أبحاثه المفزعة فى عالم
المجهول .. برغم أن ذاكرتى واهنة غير
واضحة ، لن أنكر أن شاهدكم هذا رأنا معاً كما
يقول ، فى (جينزفيل) نمشى نحو (مستنقع
قبرص الكبير) ، فى الحادية عشرة والنصف فى
تلك الليلة المريعة . وأنا كنا نحمل مصابيح كهربية
ورفشين ولفة من السلك تتصل بها أجهزة ما ..
إن كل هذه الأشياء لعبت دوراً فى المشهد الرهيب
الذى بقى فى ذاكرتى المهتزة ..

لكن بخصوص ما حدث بعد ذلك ، وسبب

العثور علىّ وحيداً تائهاً على حافة المستنقع ؛
فإننى أصر على أننى لا أعرف شيئاً عدا ما قلت
لكم مراراً ومراراً ..

تقولون لى إنه ما من شىء فى المستنقع أو
حوله يبرر هذه النبوة المفزعة ، فأجيب بأننى
لا أعرف إلا ما رأيته ..

ربما كانت رؤيا أو كلبوساً .. كما أمل كثيراً .. تلك
الأشياء التى يذكرها عقلى عما حدث فى الساعات
الصادمة بعد ما ابتعدنا عن البشر .. أما لماذا لم
يعد (هارلى وارن) ، فإته أو ظله - أو شىء
بلا اسم لا أستطيع وصفه - يمكنه أن يفسر ..

كما قلت من قبل ، فإن الدراسات الغربية التى
اهتم بها (هارلى وارن) معروفة جيداً لى ، وإلى
حد ما شاركت فيها . ومن بين مجموعته النادرة

من الكتب ، قرأت فقط تلك المكتوبة بلغات أجيدها ،
لكن هذه كانت قليلة بالنسبة للغات التي لا أفهمها ..
والكتاب الشيطاني بالذات الذي جلب النهاية ، كان
مكتوبًا بحروف لم أر مثلها قط في أى مكان .
وما كان (وارين) ليخبرنى بمحتوى هذا الكتاب
أبدأ .. أما بالنسبة لطبيعة دراسائنا فإن على أن
أقول إننى لم أعد أفهمها تمامًا .. ويوسفنى أن
أقول هذا لأننى كنت مهتمًا بها من قبيل النفور
المفتون أكثر منه ميلًا حقيقيًا .

كان (وارن) يسيطر علىّ دومًا ، وأحيانًا كنت
أخشاه .. أذكر كيف نفرت من التعبير العجيب
على وجهه فى ليلة الحادث ، وهو يحكى لى
نظريته .. عن لماذا لا تتحلل بعض الجثث بل تبقى
آلاف السنين فى قبورها ممتلئة متماسكة . لكننى
لا أخشاه الآن فأنا أعرف أنه عاش أهوالاً تفوق
تصوراتى ، ولهذا أخاف عليه ..

ومن جديد أكرر أنه ليست لدى فكرة واضحة عن
هدفنا ليلتها .. لا بد أنه كان متعلقًا بالكتاب الذى
يحملة (وارين) معه .. ذلك الكتاب العتيق
بحروفه العجيبة ، والذى جاء من الهند منذ
بضعة أيام . يقول شاهدكم إنه رأنا فى
(جينزفيل) نمشى نحو (مستنقع قبرص الكبير) ،
فى الحادية عشرة والنصف .. ربما كان هذا
صحيحًا لكننى لا أذكره بوضوح . إن ما أذكره هو
مشهد واحد لا أكثر .. لا بد أن الساعة كانت بعد
منتصف الليل وقتها .. وكان الهلال الخافت عاليًا
وسط سماء ضبابية ..

المكان كان مقبرة قديمة .. قديمة إلى حد أننى
ارتجفت من شواهد القبور العتيقة . كانت رطبة
مبللة تغطيها الأعشاب والغصون المتسلقة ، ولها
رائحة عطنة جعلت خيالى يتصورها رائحة الحجر
المتعفن ..

وعلى كل جانب كانت علامات الإهمال والتداعى ،
وقد طاردتني فكرة أننى و(وارين) أول مخلوقين
حيين نغزو صمت القرون القاتل ..

وعلى ضوء الهلال المخيف الباهت ، تبينت
مجموعة من الجرار القديمة والأنصاب التذكارية ،
وكلها قد كستها الأعشاب .. كان أول انطباع لى
عن وجودى فى مدينة الموتى الرهيبة هذه ، هو
وقفتى المتصلبة مع (وارين) أمام ضريح معين
نصف مكشوف ، وإنزالنا بعض الأحمال التى
كانت معنا ...

هنا لاحظت أننى أحمل كشافاً كهربياً ورفشين ،
بينما رقيقى كان يحمل مثلى كشافاً وآلة هاتف
متنقلة .. لم ننطق بكلمة لأننا كنا نعرف مهمتنا ،
ودون إبطاء رحنا نزيح الأعشاب والتربة ، ثم
تراجعنا إلى السوراء لنرى المشهد ، وبدا كأن

(وارين) يجرى بعض الحسابات الذهنية ، ثم
تناول الرفش يستعمله كرافعة ، ليرفع بها اللوح
القريب من حجر ربما كان أثراً مهماً .. لم يقلح
وأشار لى كى أعاونه . فى النهاية أفلحت جهودنا
فى رفع اللوح ..

ظهرت لنا فجوة سوداء منها اتبعثت رائحة
مقززة جعلتنا نتراجع فى ذعر .. بعد قليل عدنا
إلى الفتحة فوجدنا الرائحة قد صارت محتملة ..
أظهرت مصابيحنا درجات سلم حجرى مغطاة
بمادة مقززة من قلب الأرض ، وحولها جدران
رطبة تغطيها أملاح النترات .. والآن للمرة
الأولى أتذكر محادثة .. كان (وارين) يقول لى
بصوته الغليظ الخفيض :

- « آسف أن أطلب منك الانتظار على السطح ،

عن الأمر لو أننى أصررت .. وهو تهديد
فعال ، لأنه الوحيد الذى يملك المفتاح ..

أذكر هذا كله ، وإن كنت لا أذكر ما كنا نبحث
عنه .. التقط لفة السلك وناولنى أحد الهاتفين
فأمسكته فى يدي ، وجلست على شاهد قبر
حجرى عتيق .. ثم إنه صافحنى ولف السلك على
كتفه ، واختفى فى المقبرة التى لا توصف ..
ولدقيقة ظلمت أرى ضوء كشافه وصوت السلك
الذى ينفك من البكرة خلفه ثم اختفى الضوء ..
وكذا اختفى الصوت سريعاً ..

كنت وحدى .. ظلمت أرمق ساعتى على ضوء
الكشاف ، وأصغى فى لهفة للأصوات القادمة من
السماعة .. لكن لمدة نصف ساعة لم أسمع شيئاً ..
ثم دوت طقطقة من الأداة ، فناديت صاحبنى

لكنها جريمة أن أترك واحداً بأعصابك الواهنة يهبط
لأسفل .. لن تتخيل من كل ما قرأت وما قلت لك ،
أية أشياء أنوى أن أراها وأفعلها .. إنه عمل
مقيت يا (كارتر) ولا أحسب رجلاً لا يملك
أعصاباً من حديد ، بقادر على أن يراها ثم يخرج
حيّاً عاقلاً .. يعلم الله أننى سأكون سعيداً لو
صحبتك معى ، لكن المسئولية مسئوليتى أنا ..
ولن أدعو حزمة أعصاب مثلك إلى الجنون أو
الموت .. أنت لن تتخيل كيف يبدو الشيء ،
لكنى سأخبرك بالهاتف عن كل حركة .. أنت ترى
أن معى سلكاً يكفى من هنا لبلوغ مركز الأرض ،
والعودة منه !

مازلت أذكر هذه الكلمات ، وأذكر احتجاجى ..
كنت راغباً فى اصطحابه إلى أعماق الضريح ،
لكنه كان عنيداً لا يتزحزح .. وهدد بأن يتخلى

- « لا أستطيع أن أخبرك يا (كارتر) .. إنه
يفوق الخيال .. لا أحد يملك أن يعرفه ويعيش ..
يا إلهي العظيم ! أنا خائف ! »

ساد الصمت من جديد ، ثم جاء صوته
المذعور :

- « (كارتر) ! بالله عليك أعد غطاء الضريح
وارحل .. هلم ! اترك كل شيء واخرج .. هذه فرصتك
الوحيدة ! افعل ما أقول لك ولا تسألني شرحاً ! »

سمعت لكننى واصلت أسئلتى الملهوفة . حولى
القبور والظلام وتحتى ذعر يفوق خيال البشر ..
لكن صاحبى فى خطر عظيم ، وإنسى لحائق لأنه
يحسبنى أتركه فى خطر هكذا ..

مزيد من القرقعة ، ثم بعد صمت جاءت صرخة
موجعة من (وارين) فصحت وقد تجمعت للقتال :

بصوت متوتر لأننى كنت أتوجس خوفاً .. لكنى لم
أتوقع الأصوات التى وصلتنى فى لهجة راجفة خائفة
لم أسمعها قط من (وارين) . الآن ينادينى فى
همس مذعور أعنف من أى صراخ مستغيث :

- « رباہ !! لو رأيت ما أراه ! »

لم أملك إجابة فصمت .. وبعد قليل جاءت
صيحته :

- « (كارتر) .. هذا مخيف .. مفرع ..
لا يصدق !! »

هذه المرة لم يخذلنى صوتى ، فصبيت فى
السماعة طوفاناً من الأسئلة .. ورحت أردد :

- « (وارين) .. ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ »

من جديد جاء صوته الذى كان الخوف يلجمه
والآن غمره اليأس :

ينتهى الآن .. لا تجعل الأمور أصعب .. غط هذه
الدرجات وفر بحياتك .. أنت تضيع الوقت ..
وداعاً يا (كارتر) فأنا لن أراك ثانية»

ثم استحالت همساته صراخاً .. صراخاً يحوى
كل ذعر الأجيال :

- « تَبَّأ لها ! ألوف منها ! رباها ! ! »

ثم ساد الصمت .. لا أعرف كم قرناً لبثت
متصلباً أهمس وأصرخ فى الهاتف ..

- « (وارين) .. (وارين) .. أجبني .. أمازلت
هناك ؟ »

ثم شعرت بقمة الرعب المتوجة .. لقد قلت إن
قروناً مضت بعد ما صرخ (وارين) بآخر إنذار ..
الآن كان هناك صوت قرقرة من السماعة ، وأنهكت
أذنى لتسمعه ثانية .. ومن جديد صرخت :

- « (وارين) .. تماسك .. إننى قادم لأسفل ! »
لكن ما إن قلت هذا حتى صارت لهجة صاحبي
توحى بفتنوط لا يوصف :

- « لا تفعل .. أنت لا تفهم ! لقد تأخر الوقت
والخطأ خطئى .. لا شىء بوسعك ولا بوسع
إنسان آخر عمله ! »

ثم صار الصوت أنعم كأنما استسلم لمصيره
تماماً ، وعاد يقول :

- « أسرع قبل فوات الأوان ! »

حاولت أن أتغلب على الشلل كى ألحق به ، لكن
همسته التالية وجدتنى مازلت فى أصفاد ذعر
شديد ..

- « (كارتر) .. أسرع ! لم تعد جدوى .. واحد
أفضل من اثنين .. أعد اللوح .. لقد كاد الأمر

- « (وارين) .. هل أنت هناك ؟ »

وهنا سمعت الشيء الذى وضع هذه السحابة
على ذهنى ..

لا أحاول هنا يا سادة أن أصف هذا الصوت
بالتفصيل ، لأن أولى الكلمات سلبتني وعيى وخلقت
خواءً عقلياً امتد حتى أفقت فى المستشفى .. هل
أقول إن الصوت كان عميقاً بعيداً جيلاتينياً
بلاجسد ؟

ماذا سأقول ؟ كانت هذه نهاية تجربتى ونهاية
قصتى . لقد سمعته ولا أعرف سوى هذا ..
سمعته وأنا جالس متحجراً فى تلك المقبرة
التي غطت شواهدها الأعشاب والأبخره
السامة ..

سمعته من أعماق أعماق الضريح وأنا أرمق

الظلال آكلة البشر ترقص تحت قمر باهت مشنوم ..
وكان ما قاله الصوت هو :

- « يا أحمق ! إن (وارين) قد مات ! »

1919

* * *



ما وراء العالم

وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك ، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة .. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كي يعاونوه .. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على سفينته (ملكة سومطرة) ماينتويه وارتجفوا هلعاً وتقززاً ، بينما تحمس الباقون ..

« ومن يومها تغير كل شيء ، ولم تعد (إينزماوث) ذلك المرفأ الباسم الزاخر بالذهب ، لأن ظلاً مخيفاً قد سقط فوقها .. ظلاً لا يفارق كوابيس كل من يعيش قربها .. »

36

العدد القادم

خلف جدار النوم

٢٠٠
التمن في مصر
ومابعائه بالدولار الأمريكى
في سائر الدول العربية والعالم

